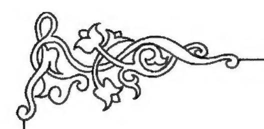
الإسلام في القرن العشرين

حاضره ومستقبله

عباس محمود العقاد







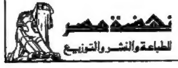
الإسلام في القرن العشرين

حاضره ومستقبله

عباس محمود العقاد







بسم الله الرحمن الرحيم

قوة غالبة

كان التقليد التاريخى فى القرن السادس للميلاد أن تتقاسم العالم المعمور دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن إلا ريثما تستعد لمعاودة الكرة بقوة من الجند والسلاح أعظم من القوة التى جردتها عليها فى حروبها الأولى .

وكانت الدولتان المتنافستان فى ذلك القرن دولة المشرق وهى دولة الأكاسرة ، ودولة المغرب وهى دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ، ولا ثالثة لهما فى العالم المعمور بين القارات الثلاث .

جهدت كل من هاتين الدولتين ألا تدع بقعة من البقاع المعمورة فى القارات الثلاث بعيدة من سلطانها أو قادرة على عصيانها .

وكانت بينهما صحراء جرداء تحفل الدولتان بما حولها ولا تكترثان لما يجرى فى داخلها ، وامتد سلطان كل منهما إلى الجانب الذى يليه فاتخذت فيه أتباعاً يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتهم أن تنصب لها أميراً على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله فى الجزيرة العربية ، ثم لا يعنيها الأمر عناية جد تنتهى فيه إلى عمل فاصل تجاوز به التردد والشروع ، فليس الأمر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار .

أما الخطر الذى فرغت له كلتا الدولتين فهو الخطر من إحداهما على الأخرى والخطر من قبل النهرين فى العراق ومن قبل النهر الكبير فى وادى النيل . فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلا من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين ، ولم تزل الحرب بينهما سجالا فى هذه الأودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على أمان من قبل الجزيرة الجرداء .

نعم كان الجيش من الفرس قد انهزم فى وقعة ذى قار على طرف من أطراف تلك

الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس فى ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرناً لها من دولة أخرى جديرة بالخوف منها وحفز الهمم للتغلب عليها ، ومثلها فى عصورها الحديثة كمثل الهزائم التى أصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون عنها يقولون إن الشمس لا تغيب عن أملاكها : هزائم تارة فى حدود الأفغان أو عند أعالى النيل أو على طرف القارة السوداء فى الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبة على كرة الأرض بين مشارقها ومغاربها .

وكذلك كانت فارس بعد وقعة ذى قار ، فلم تتبع هزيمتها بحذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدها من الحذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بيزنطة وأتباعها فى أودية الأنهار أو بين أرجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هى ولا صاحبتها بيزنطة أن خطراً عليهما قط متوقعاً من جهة الجنوب .

فلما جاء كسرى رسول من قبل هذا الجنوب وسأل عن شأن هذا الرسول فقيل له إنه نبى فى العرب يدعوه إلى دينه .. ضحك غاضباً أو غضب ضاحكاً وأمر من يذهب إلى ذلك النبى الجسور فيأتيه به حياً أو ميتاً .. ليلقى جزاءه على هذه الجسارة التى اجترأ بها على الشاهنشاه ملك الملوك .

ولما تسامع القوم فى الجزيرة العربية أن ذلك النبى يهم أن يحارب القيصر فى عقر داره سخروا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية .

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، وبعد ثلاثة عشر قرناً من القرن السادس الذى استعظموا فيه ما استعظموا من جرأة النبى العربى على عروش الأكاسرة والقياصرة فكان من المؤرخين المحدثين من كتب تاريخ الوقائع التى دارت بين أتباع ذلك النبى وبين جبابرة الفرس والروم ، ومن كتب فى تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة أمام أولئك الأتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبى إلى كسرى وقيصر رواه وهو يتعجب ويقول شبيهاً لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة : عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر فى مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء الرمال والبحار .

إن أعجب العجائب لما ينقضى على وقوعه مئات السنين ثم يتعاظم من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه .

وكان ما جرى للدولتين يومئذ أعجب العجائب فى تواريخ الدول من قديم وحديث

فقد هزمت الدولتان معاً فى بضع سنوات ، ولم يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره إحداهما أو كلتاهما ، بل جاء من المكان الذى هان شأنه حتى لم يحسب له حساب .

جاءت القوة التى هزمت الدولتين فى وقت واحد من وراء الرمال أو قل من وراء المجهول أو من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق فيما تقول .

قوة غالبة لم تصمد لها قوة .

قوة نجمت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هى تلك القوة ؟ وليست هى قوة دولة ولا قوة سلاح .. !

قيل فيما قيل إنها خشونة البادية غلبت ترف الحضارة ونعمة الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معاً قد كانتا تحكمان الملايين ممن لا يعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من حولها قبائل لم تعرف غير الجبال ، والقتال ، وكانت بيزنطة تحكم على تخومها أشباه تلك القبائل فى خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها وتهزمها كلما أغارت عليها من غربها أو شمالها ، وبعد أن تلاحقت هزائمها فى وقائعها مع أبناء البادية العربية وسلمت بالهزيمة بعد الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار .

وقيل فيما قيل إنه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم عند من ينطقون بالضاد .

ولكنه سلاح كان ينبغى أن يصدق من الجانبين ، أو يغلب به العجم فى بعض ميادينهم إن لم يغلبوا به فى الميادين كافة حيثما التقى الخصمان المتساويان فى ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا أشد احتقاراً للعربى فى تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث فى إحدى وقعات العراق أن زعيما عربياً ممن يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لأن العرب أعلم بقتال العرب ، فعضب جنود مهران لأنهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربى : « صدقت . لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم » وثاروا به يستعظمون أن يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى قال لهم : « دعونى . فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم .. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغكم أعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء » .

ألا إن هذا « الاحتقار » سلاح موفور فى المعسكرين ، فإن كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عند العجم منه نصيب غير صغير .

على أن العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعاً من أبناء البادية ولا من الناشئين على الشظف والشدة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثراء ، وكان قائدهم الأكبر – خالد بن الوليد الذي قال الزعيم العربى لقائد الفرس مهران إنه أعلم بقتاله – مخزومياً من أغنى السروات فى بنى مخزوم ذوى الجاه العريض والثراء المستفيض ، إذ كان جده – كما ذكرنا فى سيرته – المغيرة بن عبدالله الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب إليه فيسمى المغيرى تشرفاً بالانتساب إلى الفرع الذى أناف على الأصول ، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى ، وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقاً بمكة ثلاثاً لحزنها عليه ، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه ، له بيت للضيافة يأوى إليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الإسلامية . أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات ، فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم إلى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين ، ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مؤونتهم فلا يتزودون بزاد .. ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف إلى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع إنسانى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص . فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة العباسية ، إذ كان يقال لأبى العباس السفاح : « إن المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين .. » .

فإذا كان المقصود بترف الروم والفرس ترف الطبقة التى يخرج منها القادة والسادة

فليس فى قادتهم من أحاطت به نعمة الثراء كما أحاطت بقائد المسلمين الأكبر فى حربهم للدولتين ، وهو الذى سماه صاحب الدعوة الإسلامية بسيف الإسلام .

ولا ننسى أن الجيوش الإسلامية لم تصل إلى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدربت على القتال مثل دربتها وعرفت من الترف والخشونة مثل ما عرفته فى بداوتها وحضارتها .

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس فى صفوف المنتصرين مع أمراء الإسلام . ففى القرن الثانى عشر للميلاد كان السلطان محمد غورى الأفغانى يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التى اشتهرت بالشجاعة والفروسية فى العالم القديم من أقصى الديار الأسيوية إلى أقصاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوى » الذى قيل عنه إنه لم يعرف الهزيمة قط فى منازله قرين ، فانتصر الجيش الأفغانى بمن فيه من الأفغانيين والأتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، وأوشك الأمير الغورى أن يقع فى إحدى معاركها أسيراً مثخناً بالجراح فى قبضة عدوه العنيد .

وتكررت الظاهرة فى المغرب حيث كان المنهزمون من قبائل البربر التى لم تعرف فى تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها فى مواطن شتى دليلا على أن القوى التى انتصر بها دعاة الإسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن العجم على العرب ، ولا حاجة إلى قول قائل إنها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح .

فلا مناص إذن من الرجوع بها إلى السبب الذى اتفق عليه المؤرخون أو كادوا بعد التعلل لها بجميع الأسباب .

ولا مناص إذن من الرجوع بها إلى العقيدة التى حفزت أولئك المجاهدين على اختلاف الأقوام والأزمان .

غير أن الرجوع بها إلى العقيدة لا يختم المطاف ولا يغنى عن مزية فى هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التى سبقتها أو لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كهذه الظاهرة بعد تجريدها من العوامل الأخرى .

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلواً من عقيدة يؤمنون بها ويقبلون على الموت فى سبيلها ، وما كانت قبائل الهند أو آسيا الوسطى تجهل الدين أو تهمله

فى معيشتها اليومية فضلا عن المراسم التى تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه مدى الحياة .

أيقال إنها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الإسلام على سائر العقائد فى ذلك التنازع بين الدول والأديان ؟

إن دفعة الدين الجديد ولا شك سبب لا يهمل فى هذا المقام ، وقد يسبق إلى الخاطر لتفسير قوة الدعوة فى القرن السابع للميلاد وفى القرن الثانى عشر يوم كان القائمون بالدعوة فى آسيا الوسطى أقواماً من الأفغان والترك دخلوا حديثاً فى الدين .

لكن كم عقيدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت فى تواريخ الدول والأديان ؟

* * *

وَقوّة صَامِدة

إن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب فى إبان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة ، فإن القوة التى تصمد كالقوة التى تغلب فى حاجتهما إلى التفسير ، أو لعل القوة التى تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة فى معترك الصدام والصراع .

وصمود القوة الإسلامية فى أحوال الضعف عجيب كانتصارها فى أحوال الشدة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون .

ولقد تداولت الدول بقاع الأرض من القرن السابع للميلاد إلى العشرين : قامت دول إسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الأديان الأخرى ، وحدث فى فترة من الزمن خروج المسلمين من أوربة الغربية ودخولهم إلى أوربة الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وقامت دولة الآستانة أو إسلامبول ، ثم ظلت هذه الدولة كفؤاً للدول الأوربية مجتمعات أو متفرقات حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين فى ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الإسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمكن منها المستعمرون فلم تبق منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال ، ومن كان مستقلا كالدولة العثمانية أو الدولة الإيرانية أو الدولة الحسينية بالمغرب الأقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها أشد وأقسى من افتياتهم على البلاد التى فقدت حريتها واستقلالها ، وانقضى القرن التاسع عشر كله والأمم الإسلامية مخذولة والدول المستعمرة غالبة متحكمة ، وخيل إلى الناظرين أن الحاضر والمستقبل جميعاً للاستعمار ، وأنه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة وأصبحوا فى كل منها عالة على المستعمرين .

ثم انتهى القرن التاسع عشر ، فكيف رأى الناس منتهاه ؟

الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح .

والإسلام تبرز له دولتان فى آسيا عدد المسلمين فى كل منهما يزيد على سبعين مليوناً ، وهما دولتا أندونيسية والباكستان .. وسائر الدول فى آسيا وإفريقية تقترب من الحرية

وتبتعد من ربقة العبودية ، وهذه هي قوة الصمود بعد أربعة عشر قرناً من الدعوة المحمدية ، ولا ينظر المؤرخ فى أطوارها على تعدد ظواهرها وأدوارها إلا وجب عليه أن يفترض لها سراً عجيباً كذلك السر العجيب فى صدر الإسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتى العالم فى خمس سنوات .

إن قوة الصمود هنا لعجيبة كقوة الغلبة هناك ، ولعلها — كما قدمنا — أعجب من قوة الغلبة ، لأنها تملك الدفاع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع .

وندع الصراع فى مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمة فإن قوة العقيدة الإسلامية قد سرت مسراها فى أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفى إفريقية اليوم مائة مليون مسلم لا شأن فى إسلامهم لدولة أوسياسة ، وقريب من هذا العدد مسلمون فى السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب منه فى الباكستان ، وقد يكون فى الصين وما جاورها عدة كهذه العدة من الملايين .

وهؤلاء جميعاً سرت فيهم عقيدة الإسلام بمعزل عن حروب الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان للدول والسياسات شأن فى إسلامهم من بعيد متقطع غير موصول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الأمر فيه لا يكفى لإسلام عدة من الناس تحسب بالألوف والمئات ، ولا ترتفع إلى عشرات الملايين فضلا عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد المجاهدين فى سبيل إسلامهم بعدد الرؤوس التى سقطت فى ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلا فى كفة الميزان الأخرى لمئات الألوف .

هذه القوة ، غالبة وصامدة ، تتطلب تفسيرا غير كلمة العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية تهيأت لها ولم تتهيأ للعقائد الأخرى التى لم يعرف عنها مثل هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون فى انتشار الإسلام من أصدقائه وأعدائه على السواء ، فذهبوا جميعاً يلتمسون الدواعى التى يسرت لهذه الدعوة مالم يتيسر لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفة فى بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف الرغبة فى الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجئون إلى المزايا التى تعينهم على الاعتذار كلما وضح عجزهم عن تحويل المسلمين من دينهم أو وضح عجزهم عن مجاراة الدعاة الإسلاميين فى نشر دينهم بغير مشقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب والتنظيم .

فمن أسباب انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية – عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين – أنه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الإفريقى وطلاق زوجاته أو الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء .

ومن أسباب انتشاره عند الباحثين فى سرعة الإقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والأشراف ، فأقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المكانة الاجتماعية مالم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات .

ومن هذه الأسباب عند الباحثين فى سرعة انتشاره بين الأندلسيين أنه صادف ثمة شعباً فقيراً ساءت ظنونه بساداته من رجال الدنيا والدين وأنكروا من أولئك السادات الدنيويين والدينيين تعالياً عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وأبهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا فى ملتهم لأنها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد .

ومن هذه الأسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والأصول لا يحوج المتدين به بعد الإيمان بالوحدانية وفرائض العبادة إلى شيء من الغوامض والمراسم التى يدين بها أتباع العقائد الأخرى ولا يفقهون ما فحواها .

وهذه كلها – على أصح ما تكون – أسباب محلية أو أسباب موقوتة تصلح لتعليل انتشار الدين فى بيئة معينة أو فى زمن معين ، ولكنها لا تلازم انتشاره فى جميع البيئات والأزمان ، ومشكوك مع هذا فى صدق تعليل البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل شيوع الإسلام بين الإفريقيين وقلة إقبالهم على العقائد التى تحرم تعدد الزوجات .

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه من أراده بين أولئك الإفريقيين ، ومن كان منهم قادراً على تعديد زوجاته وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كائناً ما كان اعتقاده أو كائناً ما كان دينه بين الأديان الكتابية . وسائر القوم من غير ذوى القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من زوجة ، وقلما يوجد فى بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ، وقد أجمع الرحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل إفريقية الوسطى ، فلا يتأهل الشاب للبناء بالزوجة الواحدة إلا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رءوس الماشية والأنعام ، ومن المستغرب حقاً أن يتخيل المرء إفريقيا يدخل فى الدين ثم يخرج منه لأنه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التى ارتبط بها بعقد

من العقود على أيدى رجال الدين ، وأغرب من ذلك أن نتخيل الإفريقى الأعزب منتظرا متسائلا لا يدخل فى الدين حتى يتبين ما يبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج .

وأيا كان أثر العلاقات الزوجية فى انتشار الإسلام بين الإفريقيين فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن فى منافسة الأديان الأخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فإن تحريم تعدد الزوجات لم يرد فى كتاب من كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، وكل ما ورد فى الانجيل أن القس ينبغى ألا يزيد على زوجة واحدة إن لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان فى القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كلهن بقيد الحياة غير من فى القصر من السرارى والزوجات « غير الشرعيات » .. واعترف قبل مماته بعشرة من أبناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا له من زوجاته دسدراتا وهولجارد وفسترادا[1] وعدا الأبناء الذين ولدوا له ولم يعترف بهم لأنهم كانوا على غير ما يجب من سمات الأمراء .

ومن الأوهام الشائعة كما قلنا فى كتابنا عن الفلسفة القرآنية « إن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية ... لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعاً عند أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى وستر ماركWestermarck العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسر الكبيرة ، وكل ما حدث فى القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التى ذهبت إلى استحسان الزواج الموحد هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شراً من امرأتين ، وكانت المرأة على الإطلاق شراً محضاً وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده .. » .

ومن الواضح أن هذه المسألة بذاتها – مسألة الزواج والمرأة – لم تكن من المسائل التى تسبق الدخول فى دين من الأديان ، وما من أحد فى إفريقية وفى سائر القارات

رأى المسلمين منفردين بإباحة الجمع بين النساء فى البيت الواحد ، وما من وثنى على الفطرة أباح له الإسلام كل ما يستبيحه من الشهوات على دين آبائه ، وأولها المسكرات التى تفشو بين البدائيين ويضيقون بمنعها أشد من ضيقهم بمنع تعدد الزوجات وما من عقبة قامت فى وجه المسيحية بين الشرقيين أو الغربيين لأنها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر إلى المرأة نظرتها إلى شيطان أو حبالة شيطان . فاذا آمن المرء بفساد عقيدة آبائه وأجداده فلا مناص له من قبول الدين الذى كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الأوامر لأنه يعصيها أو النواهى لأنه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصى والذنوب ويرتقى فى الدين فوق مرتقاه .

ولو كان الإقناع المنطقى يكفى وحده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال إن الإسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين فى الهند لأنه يرفع عنهم لعنة المذلة والحرمان . فهم خلقاء أن يوازنوا بين منزلتهم فى دين آبائهم وأجدادهم ومنزلتهم فى الدين الإسلامى فيختاروا أفضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا أفواجاً فى الدين الجديد .

غير أن الإقناع المنطقى لا يكفى وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بأطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الإقناع المنطقى يكفى المؤرخ فى تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية إذا اعتمد عليه فى كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعاً معتمدين عليه فى أعمالهم، منقادين له فى أحساسيسهم ودخائل وجدانهم . فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث إلى الأسباب الثابتة والعوامل المقنعة ، وليس من المنطق الصحيح أن نتخيل الناس جميعا منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين فى تمييز الحق والباطل من الدواعى والأسباب .

والواقع فى أمر المنبوذين الهنديين ، وفى أمر المحرومين جميعاً ، أنهم لم يكونوا أضعف إيماناً بعقيدتهم البرهمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول إلى الأديان الأخرى كان بينهم أكثر وأسرع مما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجد فيهم من يصبر على قسمته لأنه يعتقد أنها شرط من شروط الخلاص الأبدى وكفارة على المساوىء التى سلفت منه فى أدوار الخلق الأولى ، وربما كان من المحرومين فى كل أمة من هو أثبت إيماناً على دينه من ذوى النعمة والثراء ، لأن جانب الوعد والأمل قوى فى الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والأمل أوفر من نصيب القانع المجدود .

وقد حدث حقاً أن أناساً من المنبوذين رحبوا بالدين الإسلامي ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم إليه ولحسن ما عاينوه من القدوة الصالحة فى سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل ما يفهم منه أن الهنود الذين أسلموا كانوا جميعاً من طوائف المنبوذين ، بل لا نجد فى تلك الأسانيد ما يفهم منه أن الأكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من طبقات العلية وذوى الوجاهة فى المجتمع أو فى الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود إلى الإسلام فى بقاع الهند الغربية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لا يوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة إلى الإسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون ، وتكاد الروايات المحفوظة عن أخبار الإسلام فى الجزر الجاوية أن تجمع على ابتداء الإسلام بين الأمراء والقادة ثم شيوعه بأمرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هى القاعدة المطردة فى معظم الأمم الآسيوية من سكان الجزر إلى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان فى صباه ببعض الأديان الكتابية كما حدث فى إسلام « تكودار خان» أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو الذى نقل لنا القلقشندى فى صبح الأعشى كتاباً منه إلى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه :

« .. إن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام .. »

وقد أسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الأثيوبية ، فلم ينحصر إقبال الأسيويين والإفريقيين على الإسلام فى طبقة واحدة من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العليا إلى دونها كما ابتدأ من الأتباع إلى السادة والرؤساء .

ومهما يكن من أثر الأسباب المحلية أو الموقوتة فلا بد من البحث عن سبب عام محيط بجميع هذه الأسباب التى تختلف فيها بيئة عن بيئة وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولا بد من عامل واحد غير هذه العوامل التى تحبب الإسلام تارة إلى الحاكم وتارة إلى المحكوم وتفتح له السرائر فى نفوس الضعفاء وفى نفوس الأقوياء ، وتجعله قوة تعين الغالبين على الغلب وتعين المغلوبين على الصمود والدفاع ، ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فإن حقيقته التى تتضح من إحاطته بهذه العوامل كافة أنه عقيدة

شاملة وأنه بذلك حقق الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها ، فما كانت سريرة الإنسان لتطمئن كل الاطمئنان إلى اعتقاد يفرقها بدداً ويقسمها على نفسها ويترك منها جزءاً لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج من سلطانه فيملكه سواه .

قلنا فى ختام كتابنا عن عقائد المفكرين إنه « لا التباس اليوم بين وازع الأخلاق ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقهما فى الإباحة والتحريم أحياناً بالذى يمنع الباحث أن يعرف لها صبغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين أوامر القانون وأوامر الأخلاق وأوامر الدين .

« والغالب على الأوامر القانونية أنها إرادية تكتفى بتحقيق السلامة ولا تذهب وراء الأسلم الألزم إلى شوط بعيد ، والغالب على الأوامر الأخلاقية أنها تعمل فيها الإرادة شيئاً ولكنها لا تعمل كل شىء ، بل يتولى الشعور أهم البواعث فى أعمال الأخلاق ويشاهد فيها كثيراً نزوع إلى ما وراء السلامة واللزوم وتفضيل للأجمل الأمثل من الأمور فصاحب الوازع الأخلاقى لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعاً إلى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود .

« أما الغالب على الأوامر الدينية أو آداب العقيدة فهو الشمول الذى يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة أو بالجمال إلا أن تكون معهما الثقة التى لا تتزعزع فى صميم الحياة ، بل فى صميم الوجود ، ومن السهل أن يقال إن حاسة القانون تتولد فى الإنسان لأنه عضو فى مجتمع وإن حاسة الأخلاق تتولد فيه لأنه من أفراد النوع الإنسانى كله ، ولكن ليس من السهل أن يقال إن الإنسان مهتم بمصيره فى الكون لأنه عضو فى المجتمع أو فرد من أفراد النوع .. وإنما يتدين الإنسان لأنه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له قراراً أوسع جداً من علاقاته الإنسانية أو علاقاته بالمجتمع ، ويجب أن يطلب عقيدة تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها ويريدها كما يشاء » .

وعلى هذا الشرط — شرط الشمول فى العقيدة — يكون الإسلام هو العقيدة بين العقائد ، أو هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً ومجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملا لجسده ، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد أو

لأنه جسد ينكر الروح أو لأنه يصحب إسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى، رهينًا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكننا هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه فى جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .

إن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية ، وهو المزية التى توحى إلى الإنسان أنه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .

* * *

عقيدة شاملة

يبدر إلى الذهن أن الشمول الذى امتازت به العقيدة الإسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولابد لإظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لأول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع .

ومن المحقق أن إدراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية .

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكراً للكاهن ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة .

لقد ظهر الإسلام فى إبان دولة الكهانة والمراسم ، وواجه أناساً من الوثنيين أو أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح للناس فى القرن السابع للميلاد خاصة أن « المتدين » قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه ، فالدين كله فى المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعاً قطع متفرقة لا تستقل يوماً بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب إلى المعبد لتتزود منه شيئاً تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة .

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب إلى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة.

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ؛ ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله .

ويذهب المسلم إلى الحج فلا يذهب إليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ولكنه يذهب كما يذهب الألوف من إخوانه ، ويشتركون جميعاً فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة إلى الكهانة والكهان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداماً لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم إن شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه .

فإذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وأن هذه الرسالة ليست من مناسك الدين ، وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه .

وإذا توسع قليلاً فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم : « **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَيَّ ..** » . (الكهف:١١٠، وفصلت ٦)

وقرأ فيه : « **فَإِن أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً ، إِنْ عَلَيْكَ إِلا البَلاَغُ** » . (الشورى ٤٨)

وقرأ فيه : « **قُلْ أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُول ، فإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْه مَاحُمِّلَ وعَليكم ما حُمِّلْتُم ، وإِنْ تُطِيعُوه تَهْتَدُوا ، ومَا عَلَى الرَّسول إِلا البَلاغ المُبين** » . (النور ٥٤)

وقرأ فيه : « **ومَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّار** » (ق:٤٥) .

وقرأ فيه : « **لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر** » . (الغاشية:٢٢)

وقرأ فيه : «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً للناس بَشِيرًا ونَذِيراً**» (سبأ ٢٨) .

وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات .

* * *

مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجاً فى عقيدة المسلمين .

مثل هذا لا يحصل فى أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك إليك فاننى لا أؤمن به ولا أرى فى سيرتك مصداقاً لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه .

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لأنه إله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواماً لروحه .

« ... والَّذين تَدْعُونَ مِنْ دُونِه مَايَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير * إِنْ تَدْعُوهُم لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم ولَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابوا لَكُم ويَوْمَ القِيامة يَكْفُرُون بِشِرْكِكُم ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير * يأأيها النَّاس أنتم الفقراءُ إِلى الله والله هو الغنىّ الحميد » . (فاطر : ١٥)

نعم . كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم إلا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فإن لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء .

إن عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان إماماً له فى مسجده فلن ترتفع به الإمامة مقاماً فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

ومنذ يسلم المسلم يصبح الإسلام شأنه الذى لا يعرف لأحد حقاً فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكاناً يأوى إليه ولا يكون الإسلام فى غيره .

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع إلى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام .

« وابتغ فيما آتاكَ الله الدَّارَ الآخِرَةَ ولا تَنسَ نَصِيبك مِن الدُّنيا » .
(القصص ٧٧)

« وتوكَّلْ عَلَى الله وكَفَى بالله وكِيلاً * مَا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِن قَلْبين فى جَوْفِه » . (الأحزاب ٣ ، ٤)

فإذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل — فالعقيدة التى توحد الإنسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذى لا تستريح إليه السريرة إلا حين تضطر إلى الهرب من عمل

الإنسان الكامل فى حياته ، وحافز له إلى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه .

ومن هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر . لأن الأمر فى الإسلام كله لله « **بل لله الأمر جميعاً** » ... « **ولله المشرق والمغرب** » « **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** » (الرعد:٣١ ، البقرة:١١٥ ، الشعراء:٢٨) .

و إنما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله ، وهذا التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الأمم الإسلامية لسطوة الاستعمار وإيمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لا بد لها من تحويل .

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الإنسان جملة أن يستريح إلى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام .

إن هذا الشأن العظيم – شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » – لا يتجلى واضحاً قوياً كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الإسلامية . فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الإفريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد فى خلوته ولا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الأبيض والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى إفريقية وشواطئها إلا القليل الذى لا يزيد فى بداءته على عشرات الألوف .

* * *

وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وإنكار حقوق الروح فإن الاعتراف بحقوق للجسد لا تستلزم إنكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربيةMysticism .

إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم إلى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات بحمده « ولكن لا تفقهون وتسبيحهم » . وأشار إلى هذه الأشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد وأنه نور السموات والأرض وأنه « **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** » . (الحديد ٣)

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الأديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الإسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فإن إنكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الإنسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه .

وحسب المرء أن يرضى مطالبة الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام .

كذلك يخاطب الإسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفى حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الإيمان : « **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ».. (سبأ ٤٦) « **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** » .. (البقرة ٢١٩ ، ٢٦٦) وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلا وضميراً بغير بخس ولا إفراط فى ملكة من هذه الملكات .

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الإيمان بالقدر والإيمان بالتبعة والحرية الإنسانية ، فمن عقائد دينه « **إن أَجلَ الله إذا جاء لا يُؤَخَّر** » ... « **ومَا يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يُنقص من عُمرِهِ إلا فى كتاب** » .. « **وما كان لنفسٍ أن تَمُوتَ إلا بإذن الله** » .. « **وتَوكَّل على الله وكَفَى بالله وكِيلا** » .

(نوح :٤ ، فاطر:١١ ، آل عمران:١٤٥ ، النساء:٨١ ، والأحزاب:٣ ، ٤٨)

ومن عقائد دينه أيضاً « **إِن الله لا يُغَيِّر ما بقومٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم** » .. (الرعد : ١١) « **وما كان ربُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وأَهلها مصلحون** » . (هود : ١٧) « **وما أَصابكم من مصيبة فَبِما كَسَبَتْ أَيديكم** » .
(الشورى : ٣٠)

وليس فى الإسلام أن الخطيئة موروثة فى الإنسان قبل ولادته ، ولا أنه يحتاج فى التوبة عنها إلى كفارة من غيره وقد قيل إن الإيمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك أنه كان حافزهم الأول فى صدر الإسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الأمر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لأنه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** » (التوبة ١٠٥) بل حقيقة الأمر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وأن إيمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة أن الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير .

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الإنسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة .

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومُرَادُ النُّفوس أهونُ مِنْ أن   نتعادَى فيه وأن نتَفَانى

ثم يتخذ من ذلك باعثًا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفَتى يُلاَقِى المنايا   كالِحَات ولاَ يُلاقِى الهَوَانا

والمعرى يقول إن التعب عبث لأنه لا يؤدى بعده إلى راحة فى الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد .

تعبٌ كلُّها الحياةُ فما أَعْجَـ   ـبُ إلا مِنْ راغبٍ فى ازْدِيَاد

وعلى هذا المثال يقال تارة إن عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين ويقال تارة أخرى إنها ضرتهم وأوكلتهم إلى التواكل والجمود ، وصواب القول إنهم ضعفوا قبل إن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعاً كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

فليس الإسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بني الإنسان من كل جنس وملة وقبيل :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونَذِيرًا » (سبأ : ٢٨) .. **« قُل يأيها الناس إِنى رسول الله إِليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض »** .
(الأعراف ١٥٨)

« قولوا آمنا بالله وما أُنزل إِلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإِسماعيل وإِسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتى موسى وعِيسى وما أُوتى النبيون مِنْ رَبِّهم ولا نفَرقُ بين أَحَدٍ منهم ونحن له مُسْلِمون » . (البقرة ١٣٦) .. **« إِن الذين آمنوا والذين هَادُوا والنصَارَى والصَّابئِين مَن آمن بالله واليوم الآخر وعَمَل صالحًا فلهُم أَجْرُهُم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »** . (البقرة ٦٢)

فهذه عقيدة إنسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الأمم لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح :

«يا أيها الناس إِنا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إِن أكرمكم عند الله أتقاكم إِن الله عليم خبير» . (الحجرات ١٣)

وفى أحاديث النبى عليه السلام أنه **« لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى »** .

وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالأخلاق .

«يَرْفَع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتُوا العلم درجات» . (المجادلة ١١)

* * *

« لايَستوى القاعِدُون من المؤمنين غير أُولى الضَّرر والمجَاهِدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسِهم » . (النساء ٩٥)

* * *

« والله فَضَّل بَعْضَكُم عَلَى بَعض فى الرِّزق » . (النحل ٧١)

* * *

« هل يَستَوِى الذين يَعْلَمُون والذين لا يَعْلمُون » . (الزمر ٩)

وإذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ولكنه يذكره ليقول للضعيف إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، وإلا فإنه لمن المجرمين .

* * *

« يقول الذين اسْتُضعِفُوا للذين استكْبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استَكْبَروا للذين اسْتُضعِفُوا أنحن صَدَدْناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مُجْرِمين » . (سبأ : ٣١ ، ٣٢)

* * *

« ونُريد أن نمنَّ عَلَى الذين اسْتُضعِفُوا فى الأَرْض ونجْعَلَهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكِّنَ لهم فى الأرض ونُرِى فِرْعَونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون » . (القصص : ٥ ، ٦)

* * *

وما من ضعيف وهو ضعيف إذا صبر على البلاء ، فإذا عرف الصبر عليه فإنه لأقوى من العصبة الأشداء .

« الآن خفَّفَ الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضَعْفًا فإن يَكُنْ مِنكُم مائة صابرة يغْلِبُوا مائتين وإن يكن منكم ألف يَغْلِبُون ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » . (الأنفال : ٦٦)

فما كان الإله الذى يدين به المسلم إله ضعفاء أو إله أقوياء ، ولكنه إله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه يكون مع الله ، والله مع الصابرين .

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين .

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الإسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الأديان الكتابية ، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولا إجماعياً إليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى والاقتناع ، إذ كان المتحولون إلى المسيحية أو اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمماً وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الإله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابى غير الإسلام ، وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول إلى الإسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتى سنة . ورغبهم جميعاً فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الإنسان على تعدد الأقوام والأوطان ، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع .

وإبراز هذه المزية – مزية العقيدة الإسلامية التى أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود – هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الإسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للأقوياء إلى أن يحين الحين ويتبدل من حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول . ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الإنسانية فى جملتها وللعالم الإنسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول .

الإسلام والمسلمون فى القرن التاسع عشر

١ – الإسلام

انتهى الإسلام فى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد إلى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية . لأنه تلقى عن القرون الأربعة السابقة أثقالا من المتاعب والأدواء لم تمتحن أمة من قبله بمثلها ؛ كان بعضها كافياً للقضاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافياً للقضاء على دول الفراعنة والأكاسرة فى الزمن القديم ، وإن فى هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقاً يبدو لنا فى كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فإن دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول إعادتها ، ولكن دولة الدين – أو على الأصح قوة الدين – تبقى من وراء الأمم والحكومات كأنها القوام الذى تتعاقب عليه بنية فى أثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء .

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الإسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر للميلاد ، وإنما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التى صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة إنسانية » هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الأمم ولا تزال على أمل وثيق فى المزيد .

ونستطيع أن نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التى صابرتها وصبرت عليها وهى محيطة بها من خارجها وناجمة فيها من داخلها وبين ظهرانيها .

فقد مضت القرون الأربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر فى منازلة الجيوش الصليبية ، ولم تكد هذه الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى التى وقفت فيها الدولة العثمانية – وكانت يومئذ دولة الخلافة – تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الأوربية التى تألبت عليها وأطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لأنها كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة .

ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة » على بقية الميراث حتى أعقبتها حملات الشركات وأصحاب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير .

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الإسلامى عرضة لأهول الغارات من قبل آسيا الوسطى التى كانت ترسل الفوج بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمور لنك وأتباعهم من القادة والأمراء وهم لا يفهمون معنى الغلبة إلا أنها قدرة على الفتك والتدمير ، وأن أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين ، وعدد ما ضرب من المدن والقرى فى الطريق .. ومنهم من كان يظهر الإسلام ويغير على ممالكه لأنها فى زعمه تساس على خلاف شريعة الإسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الإسلامية تتسع وتمتد حتى ينقطع ما بينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها أن يجمعوها إلى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصحبه اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والأهواء ، فلا تلبث أن تتمزق وتتفرق ثم تتعادى وتتعاون على البغى والعدوان .

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدول التى سميت بالإمبراطوريات فى الزمن القديم .

وقد رأينا كثيرًا من المؤرخين يوازنون بين أخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية فى مقدمتها ، أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الأخطار والأخطاء .

وهذه الحروب – ولا نكران – كانت من أعظم الأخطار التى امتحنت بها الأمم الإسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها إنما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر فى عرف الجملة من مؤرخيها ، لأنها فى الواقع لم تنهك قوى الأمم الإسلامية ولم تتركها موقنة بالهزيمة فى نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورثتها إفراطاً فى الثقة برجحانها وإفراطاً فى سوء الظن بأعدائها وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم إلى عدة قرون .

ومن آثار الحروب الصليبية التى لا تفوت أحداً من المؤرخين أنها وقفت عوامل الشقاق بين الأمم الإسلامية ردحاً من الزمن ، وأنها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا إلى أرض الروم ودفعتهم إلى مقابلة الغارة بمثلها فى صميم الديار الأوربية ، وأنها أيقظت الشرق الإسلامى كله من تخوم الصين إلى جوف الصحراء الكبرى فى القارة الإفريقية ، وإن أحمق الحمقى من الصليبيين كان أنفعهم وأقدرهم على إذكاء الحمية فى نفوس الأمراء والسلاطين وإن منهم لمن شغله الملك فوق اشتغاله بالدين .

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع فى نظر الأوربيين ونظر الشرقيين،ولكن الصفة التى كانت غالبة عليه ولاشك هى صفة الحلم الراجح والأناة الهادئة وإيثار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف والهجوم ، إلا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته حتى الجنون حين سمع بعزم « أرنولد » صاحب الكرك على فتح الحجاز وإعداده العدة فى البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد فى المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم صلاح الدين ليقتلن « أرنولد » بيده .. فكانت وقعة «حطين» التى تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والأمراء عفا عنهم جميعاً إلا «أرنولد» هذا فإنه لم يقبل فيه شفاعة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول : برئت من شفاعة محمد إن قبلت فى هذا الأحمق شفاعة شفيع .

وقد استنكر الصليبيون أنفسهم حماقة أرنولد هذا لأنهم أدركوا أنها استثارت فى نفوس المسلمين كل قوة كامنة وأكسبتهم وقعة « حطين » بعد هزيمتهم فى الوقائع التى سبقتها ، وهكذا كان الشأن فى أحمق الحماقات التى اقترفها شذاذ الصليبيين فإنها أفادت من أرادوه بشرها ، وارتدت على أصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين .

وليس هذا الذى نعنيه من آثار الحروب الصليبية فى نفوس المسلمين ، فإنها آثار ظاهرة لم يغفل عنها أحد من مؤرخى تلك الحروب .

ولكننا نعنى الأثر الذى عاد بالضرر الوخيم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة قرون ، وهذا الأثر الوخيم العقبى هو إفراط المسلمين فى الثقة بأنفسهم وإفراطهم فى سوء الظن بالأمم الأوربية وكل ما يأتى من نحوها ، حتى أوشكوا أن يوقنوا أنها لا تأتيهم يوماً بشىء يحتاجون إليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانونى فى حصافته واقتداره أن يتبرع بالامتيازات الأجنبية لأبناء الأمم الأوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن فى وسعها أن تقسره عليها لو لم يتبرع بها فى غير اكتراث بعقباها .

إن الأمم الإسلامية قد أنكرت على الأوربيين الذين قدموا فى جيوش الصليبيين ضروباً من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التى تعافها وتشمئز منها ، ورسخ فى نفوسهم أن هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لأنهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التى يحفظها المسلمون ، وكان أنكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الأزواج بغير زواج ، وكان أشد من ذلك نكراً لديهم أنهم يعظمون الصور

والتماثيل تعظيم عباد الأصنام للطواغيت والأوثان ، فلم ينظروا إليهم نظرة الأعلين إلى الأدنين وحسب ، بل وقرت فى أخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبة بشىء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم فى دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين .

مثل هذا الشعور قد يحيك بصدور الأمم فى أوقات كثيرة فلا يضيرها بل يمدها فى قوتها إذا خامرها فى إبان النمو والصعود ، ولكن الظروف التى تطورت إليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الأوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت فى الشرق فترة هبوط فى النهضات العلمية وكانت فى الغرب فترة صعود فى النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربة مقام القيادة على هذه النهضة وتخلف الشرق زمناً عن اللحاق بها ، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان فى أمثال هذه الظروف .

هبطت النهضات العلمية فى الشرق بعد القرن الثانى عشر على أثر الغارات التى تعاورته فى كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها ما بين بخارى وسمرقند ومرو وبغداد ودمشق وحمص وسائر المدن التى اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها فى الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التى احترقت خلال غارات التتر والمغول وغارات الصليبيين بمئات الألوف وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصراف الأمراء وطلاب العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات إلى التأهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو أخرى بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطراراً فى أول الأمر ثم اختيارًا واعتسافاً مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحكوميه ، وتراخى الزمن على أثر الحروب الصليبية واستقرت الأحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد الإسلامية الوسطى شيئاً من رخائها على طريق التجارة الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد إلى غيره من الطرق حول القارة الإفريقية ، فاجتمع سوء الحكم إلى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية ، وهذه هى الفترة التى كان ينبغى فيها للشرق الإسلامى أن يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ، ولكنها كانت – بحكم هذه الظروف جميعاً – هى الفترة التى أعرض فيها الشرق عن كل حديث وعما يأتى على الخصوص من قبل القارة

الأوربية ، فتأخر عن ركب الحضارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو أنه استفاده ناهضاً ومجارياً للنهضة فى مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين .

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاتقاء .

جاءت المدارس العصرية على أيدى الحكومات التى بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا روية ، فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندى الذى يساق إلى المشقة والوبال فى غير مصلحة أو كرامة .

وجاءت المدارس العصرية أيضاً على أيدى رسالات التبشير التى صارحت الناس فى ظل الامتيازات الأجنبية بغرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر فى كثير من البلدان ، فأحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم فى مدارسها وجاوزوا ذلك إلى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وإيمان المتعلمين .

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والأدب والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا والطبيعة والكيمياء كأنها الكفر البواح أوالسحر المزيف ، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه وتوسلوا للعمل فيه بغير أسبابه ، واتهموا الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين .

وفى هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء – والجهلاء هم الأكثرون فى سائر الأمم – مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والأوهام ، ومن الوثنية وعبادة الموتى .

فى هذه الفترة كان بعض المتعالمين من أدعياء المعرفة يحكم بكفر القائلين بدوران الكرة الأرضية ولا يتردد فى تكفير من يسميها بالكرة .

وفى هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الأرض ومغاربها يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه ؟ وهل يجوز قدح النار منه ؟ وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرته » لأنها من مادة نجسة تنقض الطهارة !.

وفى هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير والادخار وعن معاملات

التجارة من طريق المصارف والشركات ، ويحسبون أن اللياذ بالأضرحة والتوابيت وترتيل الأوراد والعزائم يغنيهم عن السعى والتدبير وعن الجهاد والاجتهاد .

وفى هذه الفترة على الإجمال كان المسلم يعيش فى العالم كمن يمشى فى خرابة مظلمة ، لا يدرى من أين تسرى إليه عقاربها وحياتها ومتى تخرج عليه أشباحها وشياطينها . وانقلب معنى الإسلام إلى معنى المخافة والاتهام . إذ كان أول معانى الإسلام أنه طمأنينة إلى الخالق وخلقه . وكان هذا الإسلام الذى صار إليه المسلمون مخافة لا سلم ولا سلامة ، واتهاماً لا تسليم فيه ولا مسالمة .

قلنا إن الإفراط فى الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعاً للإفراط فى سوء الظن بالأعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتى من قبلهم ، وقلنا إنه اكتفاء بالذات وخيم المغبة فى أمثال هذه الأحوال .

ونقول على الدوام إنه ما من شر يخلو من بعض الخير وما من ضرر مطلق إن كان معنى الضرر المطلق أنه لا يقبل الترياق أو لا يحتويه فى كثير من الأحايين .

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها فى المقاومة والأمل فى التبديل وفى عدل الله بين عباده ، ولم تكد تبلغ أقصى مداها من الأضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لأنها شككت المسلمين فى كفايتهم واستغنائهم وشككتهم فى رجحانهم وغلبتهم ، وقام بين المسلمين من يقول لهم إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن الغربيين نجحوا وتقدموا لأنهم أخذوا بالوصايا والأحكام التى كان المسلمون أولى بها لو عقلوا وصايا الدين وأحكامه .

«وعَسَى أَن تَكْرَهُوا شيئاً وهو خيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شيئًا وهو شر لكم والله يَعْلَمُ وأَنتم لا تَعْلَمُون» . (البقرة ٢١٦)

« فَعَسى أَن تَكرَهوا شيئًا ويَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خيرًا كثيرًا » . (النساء ١٩)

نعم . ولى اصطدام الشرق الإسلامى مرتين بالقارة الأوربية مصداق لهذه الآيات البينات .

إنه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع وغفل عما يحتاج إليه ، وانهزم فى وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء إلى « العقيدة الشاملة » التى ميزته بين عقائد

الأديان ، فهو فى مده اليوم عند منتصف القرن العشرين فإن لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه فقد ترك تلك المرحلة التى انتهى فيها إلى جزره فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما فى ذلك من خلاف .

* * *

الإسلام والمسلمون فى القرن التاسع عشر

٢ – المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر وفى العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ، وانتهى وعددهم حوالى أربعمائة مليون موزعين بين آسيا وأفريقية ، وقليل منهم فى أوربة لا يزيدون على خمسة عشر مليوناً بين البلقان والقرم وألبانيا واليونان وقبرص ورودس وبلاد البشناق وبولونيا وشواطىء بحر البلطيق فى لتوانيا وفنلندا وما جاورها .

ويؤخذ من الإحصائيات الأخيرة أن عدد المسلمين فى دولتى الهند يقارب تسعين مليوناً ، وأنهم يبلغون فى جزر السوند الكبرى وجزر السوند الصغرى وجزر الملوك التى تدخل فى دولة أندونيسية نيفاً وسبعين مليوناً ، ويختلف المقدرون لعددهم فى الصين من خمسة ملايين إلى مائة مليون ، فتقويم جوتا يقدرهم بثلاثين مليوناً وجلال نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدرهم فى داخل الحدود الصينية وفى منشورية وأنام وسيام والهند الصينية وفى الجزر التابعة لانجلترا من أرخبيل ملقا بنحو ستين مليوناً ، أما إحصاءات بعثات التبشير فهى تقدرهم تارة بثلاثة ملايين وتارة أخرى بخمسة ملايين فى داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحالة عبد الرشيد إبراهيم بعددهم إلى مائة مليون ، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا إنه « قد انبعثت شعبة منه فى الصين فانتشر فيها انتشاراً هائلا حتى ذهب بعضهم إلى القول بأن العشرين مليوناً من المسلمين الموجودين فى الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء لساكيامونى ... »

ويعقب السيد توفيق البكرى على هذا فى رسالته عن مستقبل الإسلام فيقول إن تاجراً بلوجياً جاء القاهرة فى هذه الأيام وكان قد ذهب إلى الصين مرارا « يؤكد القول بأن مسلمى الصين يبلغون ثمانين مليوناً وأن علماءهم يهزأون بقول الأوربيين إنهم أربعون مليوناً » .

وقد تلقت الصحف الأوربية برقية من الجماعة الإسلامية فى الصين أرسلتها أثناء حرب الصين واليابان تقول فيها إنها تتكلم بلسان خمسين مليوناً من المسلمين .

فلا مبالغة — مع ملاحظة هذه الإحصاءات جميعاً — فى تقدير مسلمى الصين اليوم بنحو ستين مليوناً ، يضاف إليهم ثلاثون مليونا فى التركستان وبخارى والقفجاق وغيرها من ولايات روسيا الأسيوية ، ويضاف إليهم خمسة عشر مليوناً فى إيران وبلاد الأفغان ، وثلاثون مليوناً فى بلاد العرب والعراق والشام وفلسطين وشرق الأردن وآسيا الصغرى ، وبضعة ملايين فى الجزر التابعة لانجلترا والولايات المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الأسيويين عن ثلثمائة مليون ، وإن قل فهو بين مائتين وخمسين وثلثمائة من الملايين .

أما فى إفريقية فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ، منهم خمسة وعشرون مليوناً فى مصر والسودان ، وعشرون مليوناً فى ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وعشرون مليوناً فى الصحراء الغربية والسودان الفرنسى وبحيرة تشاد والشوطىء الغربية ونحو عشرة ملايين فى زنجبار ومدغشقر والسواحل الشرقية والصومال ، وسائرهم بين الحبشة و وأوغندة وكينيا وأفريقية الجنوبية .

فليس من المبالغة أن يقدر عدد المسلمين فى العالم بأربعمائة مليون أكثرهم فى آسيا وإفريقية ، وأقلهم فى أوربة عدا ألوفاً معدودة فى العالم الجديد .

فهم جميعاً بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهم سكان أوربة الغربيون الذين نشأت بينهم الحضارة العصرية ، ويصدق عليهم وصف واحد فى المقابلة بينهم وبين الأوربيين المحدثين ، فلا يقال عنهم إنهم تقهقروا متنكسين إلى الزمن القديم وإنما يقال عنهم إنهم وقفوا حيث تقدم غيرهم مع العلم الحديث ، ولا ينسى المصنف فى هذه المقابلة أن الأوربيين الذين تقدموا هم الأوربيون الذين اتصلوا بالإسلام من قريب ، وهم أبناء أوربة الغربية ثم أبناء أوربة الذين احتكوا بالإسلام فى الحروب الصليبية . ولا نعنى أن أسباب التقدم تنحصر فى هذه الصلة أو فى هذا الاحتكاك ، ولكننا نعنى أن الإسلام لم يكن قط قوة مهملة فى حركة من الحركات الإنسانية سواء نشأت بين ظهرانيه أو نشأت فى مواطن أخرى ، وإن المؤرخ المحقق لن يستقصى أسباباً للنهضات الإنسانية على اختلافها دون أن يرجع بمرحلة منها إلى نهاية أوبداية فى عالم الإسلام .

وفى هذا السياق ينبغى الالتفات إلى أمر واقع قلما يلتفت إليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو أن محاربة الإسلام كانت على الدوام نكبة على محاربيه من

المستعمرين، فإن السابقين إلى الشرق من المستعمرين الأوربيين هم البرتغاليون والإسبان، ولكنهم لم يثبتوا فى الشرق طويلا لأنهم ذهبوا إليه بسمعة العداء للإسلام ، وكان الأسبان يسمون المسلمين فى جزر الهند بالمور متابعة لما عهدوه من تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون أول من نزل بجزائر السوند الكبرى وجزائر السوند الصغرى وما بينهما من الجزائر التى يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس البرتغاليون والأسبان وغيرهم من أبناء أوربة الغربية وأمريكا دارت الدائرة على الأولين لأنهم وجدوا العداء من المسلمين حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا فى آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الإسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها فى التركستان ومنشوريا والصين الشمالية الغربية عقبة من أقوى العقبات التى رصدت لها فى ذلك الطريق .

هذه القوة التى لم تسقط يوماً من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها وإقصائها من الميدان ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تنقلب الأمور على غير إرادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية أثبت من برامج السياسة وخططها الظاهرة والخفية ، بل هى أثبت من الجغرافية وما يسمونه حديثا بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الأرض ورواسى الجبال .

ونحن نستطرد هذا الاستطراد فى مقدمة الكلام على المسلمين فى القرن التاسع عشر لأنه يعيد إلى الأذهان أخطاء المقدرين وأصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الأذهان على استعداد لانتظار أخطاء أخرى من هذا القبيل قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب .

* * *

انقسم العالم فى بداءة القرن التاسع عشر إلى حضارة حديثة فى الغرب ، وحضارات قديمة فى الأقطار الأسيوية والإفريقية ، وكان المسلمون — إلا القليل منهم — فى هذه الأقطار . تخلفوا عن ركب الحضارة فى الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعاً ومنها الزراعة والتجارة التى كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعية . فتراجعت شيئاً فشيئاً أمام ملاحة البحار ، وتراجعت كذلك عن سيادة البحار .

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغالب تقدمت معها وسائل التنظيم والإدارة ، وبقى الشرقيون جميعًا ، والمسلمون منهم متخلفين فى هذه الوسائل إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل .

وأصبح العالم الإسلامى فى مقدمة الأهداف التى تصوبت إليها حملات الغرب الثلاث وهى حملات التبشير والاستغلال والاستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات فى ترتيب الزمن لا فى الخطر والأثر .. فإنه قد بدأ مع الحروب الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الأقطار رائداً لحملة الاستغلال وحملة الاستعمار .

أما العالم الإسلامى من وجهة النظر إلى مركزه السياسى فقد كان معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر فى حوزة الدول الأجنبية ، ولم يبق فيه من الدول التى كانت على نصيب من الاستقلال فى عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى الدولة العثمانية التى سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ، والدولة الإيرانية والدولة الشريفية بالمغرب الأقصى .

ولم تكن هذه الدول على شىء من الاستقلال فى غير الظاهر ، لأنها لم تكن تملك من حقوق التصرف فى سياستها الداخية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، وأكبرها وأقواها - وهى الدولة العثمانية - كانت عرضة للتدخل الدائم من قبل الدول الكبرى فى كل شأن من شئونها ، إذ كانت هى محور المسألة الشرقية التى تتلخص فى عبارة واحدة وهى تقسيم بلاد الشرق « أولا » بين روسيا وفرنسا وانجلترا ، ثم تلحق بهذه الدول كل دولة أثبتت لها وجوداً فى ميدان الاسعمار أو فى ميدان السياسة العالمية على الإجمال كالنمسا وبروسيا وإيطاليا وأسبانيا .

١ - الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محو الدولة العثمانية ، ولكن الدول التى تعنيها هذه المسألة لم تكن على اتفاق فى طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك فى العجلة أو الأناة ، ولم تكن على اتفاق بينها فى نصيب كل منها من تركة « الرجل المريض » كما سميت الدولة العثمانية فى ذلك الحين .

فروسيا كانت تتعجل التقسيم لتحتل القسطنطينية ومضايق البسفور والدردنيل ، وفرنسا كانت تتوسط بين العجلة والأناة لأنها كانت تكتفى بلبنان وسورية وبيت المقدس ولا تحرص على تفويض الدولة العثمانية من رأسها ، وانجلترا كانت تطمح إلى طريق الهند

ولا تأبى عند الضرورة أن تساعد فرنسا لتستعين بها على صد روسيا والحيلولة بينها وبين بلاد البحر الأبيض ، وحاولت كل منها أن تتخذ لها صفة الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية ... وكانت روسيا وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطان العثمانى بهذه الصفة أولاهما لرعاية الكنيسة الإغريقية والأخرى لرعاية الكنيسة اللاتينية فحاولت انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر أن تضيف إلى ألقاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ، ولكن المسيحيين أنفسهم فى الشرق الأدنى لم يعترفوا لها بهذه الصفة لأن أتباع الكنيسة الإنجيلية كانوا يومئذ جد قليل بين الشرقيين .

ولم تجد هذه الدول صعوبة فى إقلاق الدولة العثمانية ، لأنها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الأجنبية حين تشاء وكيفما تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية فى بلاد المغرب والمشرق ، فلم يكن من العسير على الدول أن تجد المطاوعين لها فى ثورتها على الحكم التركى سواء من المسيحيين وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الإدارة التركية ... ولكن الأمر الجدير بالنظر أن السياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح فى المكان المطلوب وفى الآونة المطلوبة ، فحدثت مذابح أرمينيه ومذابح لبنان ومذابح الإسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ إحدى الخطط التى ترسم قبل ذلك بسنوات أو شهور وكانت هذه المذابح هى التى تدعو إلى التدخل من جانب الدول الكبرى أما المذابح فى روسيا أو فى البلقان فلم يعرض لها أحد بمجرد الاحتجاج فضلا عن التدخل أو التهديد بالاحتلال .

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعاً على الدولة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فانهزمت جيوشها فى ميادين لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ،ولما أرادت أن تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « الينى شارى » التى كانت هى نفسها تجديداً على النظم الحديثة فى حينها كما يدل عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذى دربته على الأساليب العصرية ، قبل أن يتم لديها من الجيوش العصرية ما يغنيها فى حروبها المتتابعة ، وكانت قد استكثرت من عقد القروض لسداد نفقات هذه الحروب وإشباع نهمة السلاطين والأمراء الذين أفسدهم الضعف والاستبداد فانغمسوا فى الترف والبذخ وكلفوا بلادهم ما لا تطيق من الضرائب والإتاوات ، وأفضى سوء السياسة المالية إلى إعلان الإفلاس والعجز عن أداء فوائد الديون (فى سنة ١٨٧٤) فى مواعيدها ، واعتمد ساسة الباب العالى فى مقاومة الدول صواحب الديون وصواحب الامتيازات على المضاربة بينها ومنح الامتيازات الاقتصادية

تارة لهذه وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز شيئًا فشيئًا إلى ميدان السياسة العالمية ولا سيما بعد حرب السبعين التى انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها ساسة الباب العالى ذريعة للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على إصلاح المواصلات الداخلية فمنحوها (فى سنة ١٨٨٨) امتيازاً بمد الخط الحديدى إلى أنقرة بعد امتداده فى المجر إلى القسطنطينية ، وأتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط إلى قونية على أن تخرق السكة آسيا الصغرى إلى الشام وبغداد ، و لم تقف الدولة الانجليزية مكتوفة اليدين أمام هذا الخطر الذى يقترب من الهند ولكنها اضطرت إلى التراجع والسكوت حين لمحت من بروسيا بوادر الاتفاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من جوانب المسألة الشرقية وعلى التدخل فى القضية المصرية لمطالبتها بالجلاء عن مصر تحقيقًا لوعدها .

ومن خطوط المواصلات الهامة التى تمت فى بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته — قناة السويس (سنة ١٨٦٩) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠إلى١٩٠٨) وهى السكة التى تجاوبت بأخبارها دوائر الاستعمار على أنها تعبئة من تعبئات الجامعة الإسلامية .

وإلى هذه الآونة كانت كل دولة ذات أثر فى المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا فى أوربة أو آسيا أو إفريقية ، ما عدا بروسيا التى سيطرت فى هذه الآونة على الأقاليم الألمانية بأجمعها، فاغتنم عاهلها « ولهلم الثانى » هذه الفرصة للتقرب من تركية ومن العالم الإسلامى بأسره ، وزار الآستانة وبيت المقدس ونادى فى بعض خطبه بصداقة دولته للثلثمائة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظر ساسة الترك إلى دولة أوربية يعتمدون عليها فى تنظيم جيشهم ، فلم يطمئنوا بطبيعة الحال إلى روسيا و لم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهذه المهمة ، و لم يطمئنوا إلى انجلترا لأن وزيرها جلادستون أعلن غير مرة وجوب « طرد الترك » بقضهم وقضيضهم من كل بقعة فى أوربة ، فرحبوا بالمساعدة الألمانية على تنظيم الجيش وتدعيم الأسطول على حذر ، و لم يكن عبد الحميد داهية بنى عثمان لينسى مؤتمر برلين ومرامى الألمان فى الوقت المعلوم نحو المشرق ، و لم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التى نجحت بين الألمان المعاصرين واتخذت صيحتها (إلى الشرق) شعاراً تردده وتعلق عليه الآمال فى توسيع ملك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين إلى آسيا الصغرى إلى أواسط آسيا،و لم يخف عليه ما وراء حملة العاهل الجرمانى على الأسيويين وتحذير الغرب من يقظتهم وتأليبه الأروبيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الأصفر ، فتوخى فى سياسته على الدوام أن يجنح إلى كل

دولة من دول الاستعمار بمقدار وترك بعده ساسة تربوا فى مدرسته (حتى من أقطاب تركية الفتاة) ينهجون نهجة فى مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم يميلون إلى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الأولى ، وليس بالصحيح أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب إلى جانب دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربة الغربية استثارت الترك إلى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس إلى النهاية طمعاً فى القسطنطينية ، وتضمن معونة المتربصين بالرجل المريض من دول البحر الأبيض المتوسط وسائر الدول الطامحة إلى الشرق الأدنى ، وقد يفيد فى بيان الأعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نومئ هنا – على غير تأييد ولا تفنيد – إلى ما قيل عن دسائس المستعمرين التى أحكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم مخلصاً أوفق من هذا للتحلل من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية .

٢ – إيران :

كان على عرش إيران فى مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار – اسمه فتح على شاه – تولى الملك بعد عمه أغا محمد الذى اشتهر بصرامته وقسوته على إخضاع ثوار الكرج وخراسان . وقد سمى فتح على باسم رأس الأسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاتحين غير الطمع وحب الفخفخة ، فاغتر بمظاهر التعظيم التى أحاطه بها رسل الدول الأجنبية وراقه أن يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملوك الغرب فاستسلم لهذا الغرور وتحالف مع بريطانيا العظمى على الأفغان لاسترجاع أقاليم فارس الشرقية ، وأملى له فى مجاراة السياسة البريطانية أن روسيا انتزعت من فارس بلاد الكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثانى عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركة الهند الشرقية سيرجون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تتعهد فيها الشركة بإمداد فارس بالسلاح والمال فى حالة الاعتداء عليه من جانب الأفغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه بألا يعقد صلحاً مع الأفغان ما لم تنزل هذه عن مطالبها فى الهند ، وقد تمكن الشاه من صد الغارة الروسية على « أروان » فى سنة ١٨٠٤ بمعاونة الضباط الإنجليز وضغط السياسة الانجليزية . ثم أبرم فى أواخر سنة ١٨١٤ – بعد نكبة نابليون – محالفة عامة تتعهد فيها فارس بإلغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لإنجلترا وتتعهد فيها انجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة فى حالة الدفاع .

ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس وتركية فى الحرب التى انتهت بصلح أرضروم ، ثم حاربت روسيا على أثر احتلال هذه لبعض الأقاليم المتنازع عليها فانهزمت وتخلت عن أروان وتبريز (١٨٢٧) وخذلتها انجلترا فى هذه الحرب فاستدارت بسياستها إلى مجاراة روسيا ... وأخرجت البعثة العسكرية الإنجليزية التى قدمت إليها لتدريب جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع حكام الهند على فك الحصار عنها ، وفى سنة ١٨٥٦ شهرت انجلترا الحرب على فارس - إذ عادت إلى مهاجمة هرات واستولت عليها - فاحتل الإنجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الإيرانى عن أرض الأفغان ثم تم الاتفاق على الحدود الأفغانية الإيرانية .

وفى سنة ١٨٦٤ أنشىء أول خط تلغرافى بين بغداد وطهران وبوشير على اعتباره « توصيلة » للخطوط الهندية ، وافتتح خط أوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببضع سنوات .

واستمر السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات والرخص من الحكومة الإيرانية ، فلما حصل البارون دى روتر على امتياز باستغلال بعض الموارد الإيرانية وارتهان المكوس الجمركية أسرع الروس إلى إحباط هذا الامتياز وحصلوا على الإذن بإنشاء فرقة القوذاق وإلحاقها بجيش إيران . ثم احتلوا مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان (سنة ١٨٨٤) ، وتجددت مساعى الماليين الانجليز فمنحوا امتيازاً بافتتاح نهر قارون للملاحة ، ومنح البارون دى روتر هذه المرة امتيازاً بإنشاء المصرف الامبراطورى مع الترخيص له باستغلال المناجم فى إيران ما عدا مناجم الذهب والفضة (سنة ١٨٨٩) .

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت إحدى الشركات على امتياز الدخان المشهور الذى تصدى جمال الدين الأفغانى لإحباطه ، ثم تمادى الشاه (ناصر الدين) فى الاقتراض وبذل الرخص ورهن الموارد ، ومنها قرض إنجليزى فى مقابلة رهن المكوس الجمركية بالخليج الفارسى ، فتمكن جمال الدين من إثارة القوم عليه وإغرائهم بعصيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل فى سنة ١٨٩٦ وقيل إن قاتله صاح به وهو يضربة (خذها من جمال الدين) .

وجلس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت إيران فى عهده نهباً مقسما بين النفوذين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك الخصم الفارسى - وهو فرع من

وزارة المالية الروسية – بإقراض الحكومة نيفاً وعشرين مليون روبية فى مقابلة مكوس الجمارك بجميع أنحاء البلاد ما عدا خليج فارس ، واشترط على الحكومة أن تصفى القرض الانجليزى ولا تتقبل قروضاً أخرى مدى عشر سنوات (فى سنة ١٩٠٠) .

واحتاج الشاه إلى قرض آخر بعد سنتين فأمدته به الحكومة الروسية فى مقابلة الترخيص لها بمد السكة الحديد من جلفة إلى تبريز فطهران ، وأوشك الاتفاق أن يتم على مد الخط إلى شواطىء الخليج لولا المقاومة الشديدة من جانب الانجليز ، تعززها مساعى الماليين على يد « دارسى » من زيلاندة الجديدة لإغناء خزانة إيران عن معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسىD,arcy وحكومة إيران على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التى كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصة الحكومة من الأرباح ست عشرة فى المائة عدا رسوم الامتياز وحصة بقيمتها من أسهم الشركة .

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمارك وضعت الإدارة كلها فى عهدة نوس البلجيكى وكادت الدولة أن تشهر إفلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسئول عن سياسة القروض والرخص والرهون ، ولاذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية (يوليو سنة ١٩٠٦) فأسرع الشاه إلى عزل عين الدولة والمناداة بالدستور ، وكظمه الغيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسابيع (ديسمبر سنة ١٩٠٦) .

أما الدولتان المتنافستان على أسلاب فارس فإنهما قابلتا إعلان الدستور بالاتفاق الودى المشهور باتفاق سنة ١٩٠٧ ، فاعترفت روسيا بمصالح انجلترا فى الخليج الفارسى واعتبرت الجزء الجنوبى الشرقى فى المملكة « دائرة نفوذ بريطانية » وسلمت انجلترا باعتبار الجزء الشمالى منها دائرة نفوذ روسية ، وتركت بين الدائرتين بقعة مفتوحة لكلتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها ! .

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشاه الجديد « محمد على » ألعوبة فى أيدى الروس لأنه آثر الخضوع للدولة الأجنبية على الخضوع لأحكام الدستور . فأغلق المجلس واعتقل أعضاءه وأنصاره ، وأعلن الحكم العرفى وأمعن فى المتظاهرين تقتيلا وتشريداً واستعان بالجيش الروسى على قمع الثوار فى تبريز ، وكانت قوتهم فيها غالبة على قوة الشاه .

ثم اغتنمت إنجلترا الفرصة فعملت على إنشاء الشركة الإنجليزية الفارسية لاستغلال

امتياز دارسى باستخراج النفط فى جزيرة عبدان ، واشتد غليان الشعور الوطنى فهجم الزعيم البختيارى على قولى خان على طهران وخلع الشاه ، ثم ظهرت السياسة الأمريكية فى الميدان فقدم إلى طهران مستر مورجان شستر Shuster - بطلب من المجلس لتنظيم الإدارة المالية وافتتح عمله بإنشاء فرقة عسكرية فى خدمة الخزانة ، وتطمين إنجلترا بدعوة ضابط بريطانى لقيادة تلك الفرقة ، فأطلقت روسيا الشاه من مأواه وأرسلته إلى « استر أباد » وأغارت على الشمال منذرة المجلس بالتقدم إلى الجنوب إن لم يبادر إلى طرد شستر ومرءوسيه ، فرفض المجلس إنذارها وأصر على استبقائه ، وظهرت فجأة فى طهران جماعة من الرؤساء ذوى النفوذ بين القبائل فأغلقوا المجلس وقبضوا على أزمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدولة الروسية ، وظلت فارس فى قبضة الروس إلى ما بعد إعلان الحرب العالمية الأولى .

٣ - مراكش :

كانت مراكش فى بداءة عصر الاستعمار أول هدف للمستعمرين لأنها كانت على أقرب نظرة من دول الاستعمار فى أوربة الغربية ، وكانت فى الزاوية المقابلة لأوربة الغربية تشرف على البحر الأبيض وعلى المحيط الأطلسى فكانت فى هذا الموقع مطمح الأنظار أمام فرنسا وأسبانيا وإنجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم إليها لأنها كانت مشغولة بحروبها فى القارة وكانت تعلم أن إنجلترا لا تطيق دولة كبيرة على العدوة المقابلة لجبل طارق ، وأسبانيا وصلت إلى أوائل القرن التاسع عشر وهى تلهث من الإعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها أن تصبح فى عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . أما إنجلترا فكان جبل طارق يغنيها فى ذلك الموقع عن العدوة الإفريقية وكان همها أن تبقى مراكش فى يد أبنائها وفى حوزة حكومة لا تقوى على منازعتها ، وكانت وجهتها الأولى أن تحتل البحر الأبيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ أن تحسب عليها مراكش بدلا كبيراً فى سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور ألمانيا فى ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألة بحذافيرها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وإنجلترا على التعاون المشترك فى قضيتى مراكش ومصر واستقر الرأى على تقسيم مراكش بين فرنسا وأسبانيا والمنطقة الدولية .

وقد بدأ القرن التاسع عشر ومراكش على شىء من القوة بالقياس إلى بلاد إفريقية الشمالية ، فتصدى زعماؤها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد أن سلمت الدولة العثمانية

بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشي إلى تلمسان مستثيرًا قبائل العرب والبربر في طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشي أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسي من مقاومته إلا بنجدة قوية جاءته من فرنسا ، ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة أبي معزى وأسره إلى تلاقي الجيش المحتل وجيش السلطان في سنة ١٨٤٤ فمنيت جيوش السلطان بهزيمة منكرة اضطربت لها جوانب المغرب ونبهتها من غفلتها فنهضت لإصلاح الجيش وتثمير المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان « مولاي الحسن » بالملك – وهو من أقدر سلاطين المغرب – فأحسن التصرف في مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من تنافسها وتنازعها ، وأدخل الأساليب العصرية على دواوين الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من إيفاد البعثات إلى جامعات الغرب لتخريج الخبراء في الشئون الفنية والعسكرية . ومن فضائح الاستعمار أن الدول الموقعة على معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصل بالآستانة لمثل هذا الغرض واعتبرت ذلك منه اشتراكاً في حركة دينية معادية لا تنظر إليها بعين الارتياح والاطمئنان ، واستنكرت تجديد العلاقة بين حكومة الآستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل السفارات بينهما لأنه يغير الوضع السياسي الذي اتفقت تلك الدول على أن تلاحظ فيه بقاء الحالة الراهنة .

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار في موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا تحسب حساب اليقظة الوطنية في مصر فتجنح إلى مسالمة فرنسا ، وفرنسا تسترضي إيطاليا وتعدها بالإغضاء عن مطامعها في ليبيا ، والنمسا تطمع في بلاد البشناق من تراث الدولة العثمانية ، وألمانيا تعلم أن الحرب العالمية دون وصولها إلى مقام في المغرب الأقصى لمعارضة انجلترا وفرنسا وترضى بنصيبها في الكونغو وبلاد التوجو من القارة الإفريقية .

وفي هذه الأثناء توفي السلطان الحسن وخلفه السلطان عبد العزيز والمغرب الأقصى في أشد مآزقه وأحوجها إلى الحزم والحنكة ، فعبث في مقام الجد وسوأ سمعته في العالم الإسلامي فضلا عن العالم الأوربي بما كان يشتغل به – أو يتلهى به على الأصح – من سفساف الأمور ، وأرسل إلى مصر وغيرها في طلب المغنين والراقصات وأطمع الدول في العدوان على بلاده بهزله وغرارته ، فانعقد مؤتمر الجزيرة (سنة ١٩٠٦) في أسوأ الظروف بالنسبة إلى المغرب وشهده مندوبون من قبل السلطان واتفقوا على ما تقرر فيه باتفاق الدول التي اشتركت فيه وعدتها بضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر

فى ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراكش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنسا مهمة الحراسة وتنظيم إدارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف انجلترا وروسيا باستقلال إيران ذوداً للدول الأخرى عنها وانفراداً بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو إطلاق يد فرنسا شيئا فشيئا فى البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها .

وشبت الثورة الوطنية على أثر مؤتمر الجزيرة لعجز السلطان واسترساله فى لهوه وإسراعه إلى إقرار الوضع الجديد فى بلاده ، فبويع السلطان عبد الحفيظ بعده وتعهد قبل مبايعته بمقاومة السيطرة الأجنبية وإعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة . فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية وأغاروا على العاصمة وأعلنوا الحماية ، فكان إعلانها فى تلك الآونة (١٩١٢) أول خطوة من الخطوات الحثيثة التى دفعت بالعالم إلى الحرب العالمية الأولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها فى شمال إفريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التى كانت تحول بينها وبين التبسط فى مطامع الاستعمار .

* * *

أمم غير مُستقلة

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الإسلامية المستقلة خلال القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

أما الأمم التى كانت فى حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها فى حاضر الإسلام ومستقبله لا يقل عن شأن الدول المستقلة ، سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكانتها من عالم الحضارة ، وأكثر المسلمين عدداً على هذا الترتيب هم مسلمو الهند ومسلمو الجزر الشرقية (أندونيسية) ومسلمو الصين .

١ - الهند :

فى أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الإنجليز فى الهند وخيل إلى الأكثرين أنه قد صار فيها معلمًا من معالم الإقليم كالجبال والأنهار .. وتندر المتندرون بموعد خروجهم منها فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعيد التى تضرب لوقوع المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون فى الثلاثين من شهر فبراير ، أو يخرجون حين يلتقى أحدان ، أو حين يلتقى المشرق والمغرب .. وهيهات يلتقيان .

وإذا كان ثمة أحد فى الهند كان يؤمن بخروج الإنجليز منها لا محالة فهم مسلموها ، لأنهم على يقين بوعد كتابهم أنهم هم الأعزة إذا استقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الأمة ودخلوا الهند والدولة التى تقودها فى أيدى المسلمين فحاربوهم وعملوا على إضعافهم وصرح أحدهم لورد ألنبرو Ellenbor ough بعداوتهم فقال : « ليس فى وسعى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه إلى تقريب الهندين » وجهر لورد ألفنستون Elphinstone فى سنة ١٨٥٨ بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنديين فى إدارة البلاد، وهى الخطة التى نادى بها كاتب المجلة الأسيوية قبل ذلك بنيف وثلاثين سنة .

« وكان المسلمون فى إبان دولتهم قانعين من الحياة العامة بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة أنهم يحرمون الربا ، وعن ملك الأرض أن الأرض لم تكن مملوكة

لأحد ولكنها كانت متروكة للزراع والجباة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجباة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما أصدر الإنجليز قانوناً لتسوية الأرض الزراعية جعلوا هؤلاء الجباة ملاكاً وجعلوا الزراع أجراء فى أرضهم واعتمدوا على هذا النظام زمناً لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجباة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الأرض على إقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم فى الحياة الاجتماعية »[1] .

ثم زاد المسلمين ضعفاً أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لأن المدارس الحديثة كانت فى أيدى المبشرين،وأن البراهمة بالغوا فى عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الإسلام بين صفوفهم ، وشرح ذلك أحدهم الأستاذ لونيا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار فقال : « إن المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرنة التى لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالإغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطووا فى الغمار بعد أجيال قليلة انطواء تاماً بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم فى الواقع خلال المجتمعات الهندية إلا المسلمين . فإنهم لم يزالوا فى الهند طائفة منفصلة ، ورفضت ديانتهم المتشددة فى الوحدانية كل هوادة فى قبول الشرك والأرباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون فى أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تفلح محاولة من المحاولات فى وضع القنطرة على الفجوة ، وما برح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة بمكة وينفردون بشريعتهم ونظام إدارتهم ولغتهم وأدبهم وأضرحتهم وأوليائهم » .

وشهد المؤلف بفضل المسلمين فى تعليم أهل الهند مبادئ المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : إن إحدى النتائج التى نجمت من حكم المسلمين فى الهند أن المجتمع قد انقسم فى عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لأنهما ما عتمتا أن اندمجتا فى المجموع بسهولة وسرعة ، على حين أن الإسلام قد شق المجتمع من الأسفل إلى الأعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين . فنشأ فى أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران فى جميع طبقاتهما قبل أن تجيل بينهما علاقة فى المعيشة أو معاشرة ، واشتدت

(١) كتاب « القائد الأعظم » للمؤلف .

محافظة البرهميين أمام غيرة الإسلام فى نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة فى قيود الطبقات والطوائف وما إليها من القيود الاجتماعية » .

وهذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والأعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين . .

وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقاومة الوطنية بين الهنديين ، لأن زعيمها الأكبر طيلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء وإلغاء اللغة الأردية وإبطال القوانين التى تحترم شعائر المسلمين ، ونظر إلى المسلمين نظرته إلى الإنجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهروا بضرورة القضاء على كل أثر للإسلام فى الهند وندبوا أحدهم لقتل غاندى لأنه كان يوصى بغيرهذه الخطة فى معاملة المسلمين .

إن الاستاذ لونيا الذى اقتبسنا ما تقدم من كلامه لم يعلل نجاح الإسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو أنه علل هذا النجاح بعلته الصحيحة لأظهر الخطأ البين فى قول القائلين إن الإسلام قد شاع بين المنبوذين لأنه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات . فإن البوذية كانت خليقة أن تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه إلى معاملة المنبوذين ، وإنما يتجلى هنا سر نجاح الإسلام الذى أجملنا بيانه فيما تقدم من هذه الرسالة ، وهو شمول العقيدة الإسلامية وعلاجها النفس الإنسانية من داء الفصام الذى يقلقها ولا يريحها إلا باعتزال الدنيا وحل المشكلات بتجاهلها والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصدر القوة الغالبة والقوة الصامدة فى المسلمين ، وهو هو البقية التى بقيت لهم فى الهند بعد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصغرى والحرمان من ثروة الأرض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزلة أمام الحكومة المسيطرة وأمام الكثرة التى تربى على ثلاثة أضعاف ... ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندى المسلم من عدة غير أنه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم أقدر دعوة للإصلاح برعاية السيد أحمد خان ، ويرجع مبدؤها إلى إنشاء جماعته العلمية فى عليجرة (سنة ١٨٦١) ثم إنشاء صحيفته « تهذيب الأخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته إلى انجلترا (سنة ١٨٧٠) .

وتشعبت حركات الدعاة الإسلاميين فى الهند خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر على حسب اتساع الأقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الإصلاح ثم دعوة المهدية على قول من قال إنه يظهر

على رأس كل مائة سنة داع يجدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام أحمد خان القادياني الذى نشر فى أوائل القرن الهجرى كتابه « براهين الأحمدية » ثم ادعى أنه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى (سنة ١٩٠٤) أنه أقنوم كرشنا وأقنوم الروح الإلهى كله ، فاتبعه فى أول الأمر طائفة من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدين بنبوته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض ما يروى عنه من دعوى النبوة والحلول . وقد أحيط ظهور القادياني بالشبهات لأنه لقى من تشجيع الحكام البريطانيين ما لم يكن مألوفاً منهم فى معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه لقبول الحكم الأجنبى وتفسير أمر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الأكثرين لتلك الشبهات ، وإنما استحق الخلاف عليه أن يقوى لأن هذه الفتوى حملت على محمل التقية ، وهى مقبولة فى اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقى الدعاة إلى أهل البيت ما لقوا من عسف الأمويين والعباسيين .

على أن الهند — مع بعدها فى المشرق — كانت تتجاوب بكل صدى قريب أو بعيد من الدعوات الإسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال (سنة ١٨٠٤) واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية . فاعتبرت الهند دار حرب إلى أن تدين بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعامة السيد أحمد البارىلى فى البنجاب وأوجب على أتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم فى القتال حتى قتل (سنة ١٨٣١) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصل بطريقة الفرائضية وأفتى بأن البلاد الإسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وإن كان الحكم فيها لغير المسلمين .

وترامت إلى الهند أنباء الدعوة المهدية فى السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهزام القائد الإنكليزى فيها ، فقد حذر الإنكليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئات الألوف من فتاوى العلماء المنكرين لها . وذهب بعض ساستهم إلى الزعيم المصرى « أحمد عرابى » فى منفاه بسيلان يسألونه عن مهدى السودان فكان جوابه لهم من جنس السؤال،وقال لهم إن المهدى فى الإسلام هو كل من هداه الله .

وقد تطلعت الهند إلى دعوة جمال الدين الأفغانى كما تطلعت إلى الدعوات التى سبقتها ، وصح فيها أنها كانت لاتساعها وتعدد بيئاتها أصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعاً أن أصلح الحركات وأدومها أثراً هى حركات التجديد التى تجارى العصر ولا تنقطع عن أصول الدين ،

وأخفقت فيها حركات الجامدين المتشبثين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المبتدعين الذين انقطعوا عن الأصول وخرقوا فى العقيدة خرقاً يخالف جوهر الإسلام .

ولقد بدأ القرن العشرون والمسلمون فى الهند يتطلعون إلى دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الأولى عن شدة فى الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة قصواها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التى يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى استقرت على التجربة الأخيرة بقيام دولتى الهند والباكستان .

٢ — أندونيسية :

وإذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينية فالجزر الأندونيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه ومشتقاته ، لأنها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية والثقافية والسياسية ، واختبرت أساليب البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز، واليابانيين، وعاصرت الاستعمار من أيامه الأولى فى الشرق إلى أيامه الأخيرة على النحو الذى صار إليه فى القرن العشرين ، ولا نظن أن خطة من خطط الاستعمار اتبعت فى ناحية من أنحاء العالم لم يتبع لها شبيه فى هذه الجزر التى تعد بالألوف .

لعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار الإسلام بين الأمم التى كانت تدين بغيره قبل وصوله إليها . ففى كل موضع فيها تصحيح لأوهام من يزعمون أنه دين ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشاره بغير عنف بل بغير اجتهاد فى الدعوة أكثر الأحيان ، وحيثما وجد التجار والرحالون من العرب على شواطئ هذه الجزر فهناك مسلمون على المذهب الذى يأتمون به من مذاهب الأئمة الأربعة ، وإذا كان الترك على الأغلب يأتمون بمذهب أبى حنيفة وكانت للعشائر التركية دولة فى الهند فالدولة لم تصل إلى الجزر بسلطانها وقوتها بل وصلت إليها بالمسافرين من تجارها ، ومهاجريها ، ولهذا يوجد الحنفيون حيث وجد هؤلاء التجار والمهاجرون ويوجد إلى جانبهم أتباع المذهب الشافعى الذين اقتدوا بالعرب القادمين من بلادهم غرباء بغير دولة لا صولة تكره الناس على مذهبها فى شؤون العقيدة وهى أعصى الشئون على الإكراه .. ومع هؤلاء وهؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة ذات سلطان تدين بمذهب من مذاهبها . ولم يزد عدد العرب فى القرن التاسع عشر على ثلاثين ألفاً فى جميع جزر الأرخبيل ، ولكن المسلمين يقاربون سبعين مليوناً من أبناء البلاد الأصلاء وبعض الهنود .

وهذه البلاد من أغنى أقطار العالم بالمحصولات الزراعية ، ينمو فيها القصب والبن والشاى والأرز والبطاطس وتنبت فيها الأشجار التى تخرج الأصماغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ، وأشهر محصولاتها الأبازير والتوابل التى تهافتت عليها أوربة ومن أجلها حاول الرحالون فى القرن الخامس عشر أن يصلوا إلى منابتها من المغرب ، فانكشفت لهم القارة الأمريكية على غير انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية مقابلة لهذه الجزر التى كانت تعرف باسم جزر الهند الشرقية .

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الأول وصحبت الاستعمار من أول بعثاته إلى عهده الأخير .

وأبناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هى لغة الملايا ، وشيوع هذه اللغة بينهم مع شيوع الإسلام هو الذى وحدهم وعودهم الشعور بقومية واحدة ، على الرغم من الجهود التى بذلت للتفرقة بينهم بإحياء اللهجات الإقليمية وتشجيع « الأبجديات » التى تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الاستعمار قد زود هذه اللغة على غير قصد منه بالأبجدية اللاتينية التى رسمت لها كتابة واحدة لا يسهل تنويعها وتفريقها على حسب اللهجات فى معاهد التعليم الحديث .

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم يعرفها الهولنديون إلا بعد قرن كامل ، ثم تبعهم الإنجليز والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة أبناء البلاد لأنهم جاءوهم بعد البرتغاليين فحالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء وإقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجارة الهولندية تنافساً على الربح الغزير الذى استأثرت به الشركة الأولى ، فوحدت حكومة هولندة بين هذه الشركات وجمعتها إلى شركة واحدة هى شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد تعاقدت هذه الشركة فى مطلع القرن السابع عشر مع مملكة بنتام على احتكار التجارة فى موانئها وأسواقها وإعفائها من الضرائب وإمدادها بالجند والعدة اللازمة لصد الشركات الأوربية الأخرى ، إذا أدى إغلاق الموانئ دون سفنها إلى الاعتداء على بلاد المملكة .

ولما وفد التجار الإنكليز على الجزر كان الهولنديون قد أسرفوا فى مطالبهم ، فرحب القوم بالانكليز وأعانوهم على الشركة الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحرية كبيرة وحاصرت الموانئ ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتتحوا عهد استعمارهم بإنشاء مدرسة فى العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة ،

واغتنموا فرصة النزاع بين الأمراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التى أسعفتهم مراراً فى أشد أوقات الحاجة إليها .

إلا أن التنافس التجارى بين المستعمرين قد اضطر الشركة إلى التحول من التجارة إلى الزراعة ، واضطرها التنافس كذلك إلى الإكثار من بناء السفن الحربية والاستعداد بالأسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والإنجليزية فكسدت تجارة الشركة ولجأت إلى الاستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الاحتكار التى اتفقت عليها مع الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندة فى أثناء الحرب الفرنسية الانجليزية فاستولى الانجليز على مستعمرات هولندة جميعاً ، وآلت البلاد إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الأمراء والمصلحين إلى الحاكم الإنجليزى لإقناعه بتوحيد الإمارات الأندونيسية فى شبه ولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية ... فلم يقبل مجلس الشركة فى لندن هذا الاقتراح ! واستعاض عنه بالإكثار من الحكومات المحلية وإلغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملغاة .

ولما عاد إلى هولندة استقلالها بعد انهزام نابليون أمام الجيش الإنجليزى الهولندى فى وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها ... وأظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصياناً « متفقاً عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين (سنة ١٨٢٤) على تسوية تحفظ لإنجلترا جزءاً من المستعمرات وتعيد سائرها إلى الحكومة الهولندية .

وعادت الإدارة الهولندية إلى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع المجاعات والأزمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الوقيعة بين أمراء الممالك وتأليب صغارهم على كبارهم وانقياد صغارهم للدسيسة الأجنبية خوفاً على سلطانهم المحدود من غلبة الأمراء الكبار عليهم ، ولم تهدأ هذه القلاقل إلا فى السنوات الأولى من القرن العشرين ، ثم أذعنت هولندة كما أذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضات الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ، فاستجابت للشعب الأندونيسى إلى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية فى هذه البلاد لأول مرة فى ظل الاستعمار .

ويرجع فضل النهضة الوطنية إلى يقظة المسلمين وتأسيس أول جماعة من جماعات

الإصلاح باسم « شركة إسلام » وهى الجماعة التى انضوت إليها جماعات متعددة بعد ذلك باسم « مسجومى » ... كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين أندونيسية » Madjelis Sjuro Muslimin Indonesia .

وأكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لأنهم استفادوا من تجارب الإصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم للإصلاح بعد توافر أسبابه فى إبان دعوة الأستاذ الإمام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الإسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طلبها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين وقد تمحصت التجارب خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الإسلامية الأولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فأسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الأستاذ الإمام رحمه الله .

* * *

٣ – الصين :

ومسلمو الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وإنما يرجع الخطأ فيه إلى تعديل التقاويم الصينية من حين إلى حين ، بحيث تتسع فى بعض العصور لفرق عشرين أو ثلاثين سنة تزيد تارة وتنقص أخرى وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الإسلام قد دخل إلى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل . وقد هزم المسلمون الفرس والروم معاًبعد الهجرة النبوية بجيل واحد فأرسل كلاهما إلى الصين يستغيثون بابن السماء ويهولون له فى خطب هذا العدو الظافر . ظناً منهم أن هذا التهويل يحفزه إلى المبادرة بإغاثتهم فى الطريق حرصاً على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر مما حسبوه ، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس إلى مسالمة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله إلى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله فأوفد إليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب .

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التى حيرت سفراء الغرب وقهارمة البلاط فى مملكة ابن السماء بعد أكثر من عشرة قرون ، حين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا إليه راكعين وعز على هؤلاء السفراء أن يحيوه بتحية أكبر من تحياتهم لملوكهم فإن العاهل سوان تسنج غره ما سمعه عن اضطراب أحوال الدولة الإسلامية فجرد على تخومها جيشاً كبيراً يريد أن يدحر

به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم . فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين أنفذهم إلى بلاط ابن السماء أن يعرضوا عليه الإسلام أو الجزية أو مواصلة القتال . فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لأول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين ، ثم مات الخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجزل العاهل عطاء الجيش الإسلامى وأذن لهم بالبقاء فى بلاده ، فسموا باسم القبيلة الصينية التى كانت إلى جوارهم ودانت بالإسلام مقتدية بهم ، وهى قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعاً يعرفون باسم « هوى هوى » فى جميع بلاد الصين .

ويؤخذ من سجلات أسرة تانج أن الدولة كانت تمنح الأسر الإسلامية المقيمة فى « سيانغو » خمسمائة ألف أوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدول على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل « سوتسنج » الذى ثار به الجند بعد إكراه أبيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسى أبى جعفر فأمده ببضعة آلاف جندى هزموا الثوار وأقروه على عرشه فاستبقاهم فى أرضه (سنة ٧٥٧) .. ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون فى غرب الصين .

إلا أن المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانى الجنوب فى كانتون وما جاورها ، وأوغل بعضهم إلى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم إقليم فى الأقطار الصينية على الإجمال ، ويسمى المسلمون فى الشمال الغربى عند قانصوه وشنسى بالتنجان أى المنتقلين إلى الدين الجديد ، ويسمون فى سنكيانغ بالترك لأنهم من السلالات التركية فى التركستان ، ويسمون فى يونان بالبنشاى وهم من سلالة الترك والعرب وأهل الصين الأقدمين ، وليس هؤلاء جميعاً من سلالة المسلمين الأولين ، بل منهم أناس من أبناء الصين آثروا الإسلام إعجاباً بأهله ، ومنهم من كان آباؤهم يبيعونهم فى أعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين على عقيدتهم ، ولم يحل تحريم المسلمين أكل الخنزير وتعاطى الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم إلى دينهم بالقدوة الحسنة والمعاملة المرضية والأمانة فى التجارة والزراعة ، فأسلم كثيرون بغير إكراه على قلة اكتراث الصينيين بالتحول من دين إلى دين لأنهم لا يبالون ما يعتقدون إذا تركت لهم عبادة الأسلاف ورعاية التقاليد فى الشعائر وآداب السلوك .

وقد شقى المسلمون فى الصين بحكم أسرة المانشو فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعلمت هذه الأسرة الواغلة تاريخ المسلمين فى نصرة الأسرة المخذولة فأشفقت

من ثورتهم وتعللت لهم بالعلل التى تصطبغ بصبغة الدين لتنفير البوذيين منهم ، فحرمت عليهم ذبح البقر (سنة ١٧٣١) مع أنها تبيح ذبح الخنازير ، وظنت أنها ترضى بذلك طوائف البوذيين وترضى سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير ويسرهم أن يضطر المسلمون إلى أكله بعد تحريم البقر عليهم ، فثار المسلمون وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة فى معارك كثيرة ومنها معركة فى التركستان الصينية قتل فيها ألفان وانتحر الوالى خوفاً من القصاص (سنة ١٨٦٣) . وفى هذه الآونة استقل البطل التنجانى يعقوب بك بحكم التركستان وأوشك أن ينفصل بها وبالإقليم المجاور لها لولا أنه مات فجأة (سنة ١٨٧٧) واختلف أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، إلى أن سقطت دولة المانشو وكان لثورات المسلمين فى الغرب والشمال أثر فى إسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها .

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين المسلمين فى حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول من تعرض لبأسهم فى حربها مع الصين (سنة ١٨٧٥) فخطبت ودهم وتقربت منهم جهرة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من أمراء البيت المالك إلى دار الخلافة لتستميل إليها المسلمين الصينيين فى خصوماتها مع أسرة المانشو ومع الروس فى وقت واحد ، وكانت أسرة المانشو قد حرمت على المسلمين الاتصال بالعالم الخارجى فتعذر عليهم أداء فريضة الحج ولكنهم كانوا يتحايلون على الخروج لأداء هذه الفريضة بمختلف الحيل ، فلما أحست بمساعى الدول بينهم وتسلل الدعاة إليهم من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم ، فنشأت بينهم عادة غريبة وهى عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الأمم القريبة لينوبوا عنهم فى الحج بأسمائهم ، خوفاً من النفى الدائم إذا غادروا البلاد بغير إذن الحكومة ، ولم تخل القيود من أثرها المحمود . فإنها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ القرآن فكثر بينهم من يعرفون لغته ويقرأون بها قراءة المجتهد فى أرض معزولة عن الثقافة العربية ، وتعزى إلى هذه الفترة نهضة التجديد بين مسلمى الصين الغربية ، وهى كسائر النهضات مقبولة عند فريق، مستنكرة أو مشتبه فيها بين فريق المحافظين على كل قديم .

ولا يزال مسلمو الصين فى غمرة من جرائر الظلم الذى حاق بهم على عهد الأسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيراً بعد قيام الجمهورية ، ولكنهم على أية حال كانوا فى مطلع القرن العشرين قوة لا تهمل فى حساب أحد يعنيه أمر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم الجمهورية عنصراً من العناصر الخمسة التى يقوم عليها بناء النظام الجديد .

أمم أخرى

تلك فى العالم الإسلامى أكبر الجماعات التى بقيت إلى ختام القرن التاسع عشر فى حكم غيرها ، وهى جماعات كبيرة حتى بالقياس إلى أكبر الجماعات من حولها ، إذ ليست الصين مثلا على عقيدة واحدة بملايينها الأربعمائة ، ففيها الطاويون والبوذيون وأتباع كنفشيوس وطوائف شتى لا تقيم شعائرها فى بيعة واحدة وقد تواترت الأدلة على الرغبة فى الإقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء فى جميع الإحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هذه الرغبة بعد إعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليمان هوفر معتمدا على مراجع الحكومة العامة إن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الأستاذ أحمد على الباكستانى عن خطأ هذا الإحصاء معتمدا على عدة مراجع ، منها دليل الصين الرسمى فى سنة ١٩٤٣ ، فإن تعداد سنكيانج وحدها فى ذلك الدليل ٤٫٣٦٠٫٠٢٠ وتعداد قانصوه ٦٫٢٥٥٫٤٦٧ وتعداد شنسى ٩٫٧٩٩٫٦١٧ وكلها بلاد إسلامية أكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمى يونان وشنغهاى وتنغسية وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادى اليانجستى وقد ذكر ولز وليامس إحصاءهم فى كتابه الذى ظهر قبل خمسين سنة (سنة ١٨٨٣) فقدرهم بناء على ذلك الإحصاء بعشرة ملايين ، ولا حاجة إلى شواهد أخرى أو إلى استقصاء سائر الأقاليم لإثبات تلك الرغبة فى الإقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم أن الجماعة الإسلامية التى كان ولاة الأمر الصينيون يودون الإكبار من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت — بإذن ولاة الأمور — أنها تمثل خمسين مليوناً من الصينيين .

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير فى قارة كالقارة الأسيوية يتقدم اعتبار العدد فيها على كل اعتبار .

وهناك شأن آخر لابد من الالتفات إليه فى كل كلام يتعلق بالجغرافية الإسلامية ، فلا يخفى أن البلاد الإسلامية تبتعد عن شواطئ البحار بتدبير أو بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف لها فى بعض المواقع ومصدر قوة لها فى بعض المواقع الأخرى فالمسلمون فى وسط آسيا لأنهم هناك ميزان القارة الداخلية لا يتم أمر من الأمور فى سياسة العالم التى ترتبط بتلك المواقع إن لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم فى الجزر الهندية الشرقية يملكون الشواطئ فلا يهمل شأنهم فى كل سياسة عالمية لها علاقة بحرية ،

وهم فى الباكستان شرقاً وغرباً يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسة القارة الأسيوية بعد النظر إلى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الإسلام .

وتعاصر هذه الجماعات الإسلامية الأسيوية أمم شتى لا تساويها فى العدد ولكنها ملحوظة المكانة لغير ذلك من الاعتبارات ، وفى طليعتها وادى النيل والبلاد العربية .

° ° °

وَادى النِيّل

فوادى النيل قضى القرن التاسع عشر كله - اسماً ورسماً - فى حوزة الدولة العثمانية ، ولكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الإسلامى ، لجملة أسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة أخرى ..

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الإسلام ، وكان ملوك الإفرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الإسلام إذ انتحل أحدهم لنفسه لقب الإمارة على المسيحيين ، وكانت مصر طليعة الجيوش الإسلامية فى مقاومة الصليبيين،وبيت المقدس تابع لها فى أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العالم الإسلامى فى القرون الوسطى وهو لا يعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة إليها من الجامع الأزهر ، وعظمت مكانتها أمام الغرب بعد الحروب الصليبية فى عهد الاستعمار وفى عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » يغرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضاء على المستعمرات الهولندية ويقول له إن هولندة لا تجسر حينئذ على معاداته لأنها تجر عليها غضب العالم المسيحى إذا حاربته وهو مشغول بفتح معقل الإسلام ، ولما فكرت الدول فى أمر قناة السويس كان المركيز دار جنسونDargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول إنه فتح صليبى لجميع المسيحيين .

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد العالم الإسلامى إلى الحضارة الحديثة ، لأنها تنبهت إلى مزايا هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية إليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت فى حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات فى كل علم حديث .

ويعتبر القرن التاسع عشر فى مصر بمثابة الأزمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الأسر والحرية ، واستهلت أمة مصر سنواته الأولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت فى إجماع القادة على عزل الوالى العثمانى وترشيح وال يختارونه ليخلفه على شرطهم من الاستقامة فى الحكم والتعفف عن الحرمات والأموال ، فتولى الأمر « محمد على » ولجأ إلى النظم الحديثة فى إدارة الدولة وتثمير الأرض والانتفاع بماء النيل ، ولولا إسرافه فى العدة لتوسيع

ملكه لأدركت البلاد أضعاف ما أدركته من المنعة والتقدم بعد القضاء على عصابة المماليك .

وقد استفادت مصر فى هذا القرن من الحضارة الأوربية وأوشكت أن تخلص لها فوائدها لولا بقايا الامتيازات الأجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الأول إلى أيام توفيق بن إسماعيل ، وفى عهد هذا تفاقمت بواعث السخط والنقمة فثارت الأمة تطلب الإصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاة ، فتذرعت بريطانيا (العظمى) باختلال الأمن فى مصر لضرب الاسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع فى الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون، ولم يحدث قط أن مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الأرض فى أوربة أو أن أن اضطهاد المخالفين فى الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين .

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الأزمة النفسية التى تصاحب سن الرشد فى بواكير الشباب ، فحدثت فيه نكبة الاحتلال الأجنبى وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية فى وجه الدولة صاحبة السيادة وهى الدولة العثمانية ، وفى وجه حكام مصر وهم سلالة محمد على ، وفى وجه السيطرة الفعلية وهى سيطرة المستعمرين ، ويحسن بالمؤرخ الذى يعنيه الاستقصاء فى النهضات الفكرية على الخصوص أن يقرر فى ثقة ويقين أن العصبية العمياء لم تكن قط عاملا فعالا فى حوادث مصر الهامة . فقد كان شعور مصر إسلامياً كلما أحس العصبية من الغرب فى عدائه للأمم الإسلامية . ولكن الهتاف بالسخط على « العثمانلى » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه أن جماهير العامة كانت تنادى فى أواخر أيام المماليك مستنجدة بالمتولى لهلاك العثمانلى ، وكان هتافها الذى لا يعقل أن يصدر من غير العامة « يامتولى يامتولى . تخرب بيت العثمانلى » . وبعضهم يتعلم ويتخرج فيستبدل المتجلى بالمتولى ، وهو ما جرى مجراه مسطور فى تواريخ مصر بأقلام المصريين والأجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين .

أما الخاصة فمنهم الحزب السياسى الذى نادى « بمصر للمصريين » قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى رأسهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الأولى وكان وكيلا للهيئة النيابية التى تألفت فى أوائل القرن العشرين باسم « الجمعية التشريعية » وأثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها على قيادة الأمم بفضل من فيها من الأعضاء لا بمقدار ما لها من الحقوق فى النصوص والأحكام .

* * *

البلاد العَربيّة

ومن تاريخ الإصلاح الإسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الإصلاح فى العالم الإسلامى يخلق حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة . فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها ما يصلح للبداوة ، وكل ما هنالك أن الإصلاح فيها يتأخر به الزمن لأنه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية ما لم يكن لزاماً فى البيئات البدوية .

فالنهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر . ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الإمام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الأوطار » ، وكلاهما ينادى بالإصلاح على نهج واحد : وهو العود إلى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هوادة ، وإنما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقه والحديث لأن الوهابيين هدموا القباب والأضرحة فى الحجاز واصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى إبان حربها مع الدول الأوربية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد أودى بدولة على بك الكبير فى مصر فانتقض عليه أعوانه وتمكن منه حساده بعد مخالفته لروسيا فى حرب الخلافة الإسلامية .

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثاً فى الجزيرة العربية ولا فى أرجاء العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه ، فقد تبعه كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه إلى الهند والعراق والسودان وغيرها من الأقطار النائية ، وأعجب المسلمين أن سمعوا أن علة الهزائم التى تعاقبت عليهم إنما هى ترك الدين لا فى الدين نفسه ، وأنهم خلقاء أن يستجدو ما فاتهم من القوة والمنعة باجتناب البدع والعودة إلى دين السلف الصالح فى جوهره ولبابه .

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها فى هذه المرحلة أن تستغل التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمراء الجزيرة فى داخلها وعلى شواطئها ، فسارعت بريطانيا العظمى إلى التعاقد مع أمراء الشواطئ على نوع من الحماية الخفية ، وأحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية إلى العراق ، فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هذه الإمارات التى تخضع لها وتعمل لها فى السر ما لا تستطيعه فى العلانية .

* * *

الهلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية فى نهضة الإصلاح الدينى ومجاراة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون فى بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة إلى التغيير ولكنهم لا يلتمسونه فى بساطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لالتماسه فى العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم فى المدارس التركية وقدم بعضهم إلى الجامع الأزهر بمصر أو تلقى العلم على مناهجه من علماء بلده .

ولما تسابقت الدول الغربية إلى فتح المدارس فى لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول إن التعليم خير الوسائل فى التبشير والتنصير .

ومن خدام الاستعمار طائفة تمهد له بخدمة اللغة العربية تشجيعاً لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتيالا على نفث بعض المغامز فى طيات الكتب التى تنشرها ، وإن خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لا يخلو من الخير وإن ساءت النية عند ناشريه .

وجملة الحال فى بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر أنها تتقدم فى نهضة إسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وأن هذه النهضة يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين يذهب الجناح السياسى منهما بعيداً ويصطنع الجناح الدينى شيئاً من الأناة والمحافظة .

وفى داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمتاولة والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون إلى أقوال فى مسألة الحلول ومسألة الإمامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة المعتدلون .. وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوى على عزلتها ، إلا أفراداً منهم يقصدون إلى معاهد العلم الحديث فى لبنان ومصر والديار الأوربية .

* * *

إفريقية الشمالية

أما فى إفريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس فى سنة ١٨٨١ وسلكت فى كل منهما السياسة التى تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار سواء منه ما ينتحل المبادىء الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية .

فنابليون الثالث قد منح المسلمين فى الجزائر حقوقاً كحقوق المواطنة ، وهو عاهل مطلق اليدين .. ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود .

وحكومة فرنسا وهى تنادى باعتزالها للدين تضع فى « الميزانية » التى عجزت مواردها عن مصروفاتها باباً واسعاً لمعونة المبشرين فى إفريقية الشمالية ويعلن وزيرها فى البرلمان أن « السياسة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولا تتخطاها إلى المستعمرات .

وقد ابتدأ القرن العشرون فى الجزائر وتونس بنهضة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستمهلها المحافظون ، ولم يبق من المحافظين فى نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لأنه بدعة مستمدة من الشرائع الغربية ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتحرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد .

وتم احتلال المستعمرين لإفريقية الشمالية باحتلال طرابلس فى سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الإيطاليين ، وسمعت فى إيطاليا قبيل الزحف على طرابلس أناشيد « الصليبية » فى نغم جديد ، ولكنها سمعت أيضاً بعد ذلك بزهاء ثلاثين سنة تمجيدًا لغزوة الحبشة وابتهاجا بتخليص أثيوبية القديمة من « الهمج » الذين دنسوا دين المسيح ! .

* * *

مسلمو الحبشة

ومن أكبر المجاميع الإسلامية فى القارة الأفريقية مسلمو الحبشة وعددهم مع المسلمين فى الصومال وإريترية لا تقل عن ستة ملايين .

وتجمع التواريخ التى كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة فى القرن التاسع عشر على سوء حالهم واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعاً ومنهم المسلمون ، وجاء فى إحدى الرسائل التى كتبها جوردون إلى أخته « أن يوحنا – ويا للعجب – يشبهنى تعصباً للدين وله رسالة سينجزها ، وهى تنصير جميع المسلمين »[1] .

وقد أشار ترمنغهام فى كتابه عن « الإسلام فى الحبشة » إلى أعمال يوحنا هذا فقال فى صفحة ١٢٢ « إن بعض المسلمين تحولوا إلى بلاد الغالا أو المنخفضات الإسلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنه تنصر لا يعنى لدينهم إلا القليل ، إذ كان مقصوراً على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Massaia إنه رأى بعينه أناساً منهم يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها إلى المسجد ليزيلوا أثر العمادة على يد الإمام[2] .

وبعد أن قتل هذا الملك فى حربه مع الدراويش حسنت أحوال المسلمين بعض الشىء ولكنهم تعرضوا لمظالم شتى يذكرها السياح من الأوروبيين كما ذكرها السياح الشرقيون فى كتب الرحلات الحديثة .

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التى طبعت سنة ١٩٠٢.

(٢) Islam in Ethiopia by Trimingham

السُّودَان

ونريد بالسودان هنا جملة الأقطار الإفريقية التى يقطنها الزنوج . وفيه مسلمون فى جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه .

وموقف الحكومات الأجنبية فى أقطار هذا السودان جميعاً هو موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الأوربيين ، وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين إلى النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير فى بلاد الوثنيين ، فتبيح لهم السفر إلى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات[1].

وصرح القس « شو » فى سنة ١٩٠٩ « بأن قبائل الوثنيين ما لم تدخل فى المذهب الإنجيلى قريباً فهى حتماً صائرة إلى الإسلام » .

وعقب ترنغهام على هذا فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الإسلام فى السودان فقال فى صفحة ٣٨ :« ولكن هذا الخطر قد زال الآن » .

ويفهم من كتاب «السودان المتغير The Changing Sudan» تأليف ولسون كاش Cash أنه ما من قائد أو رائد أرسلته مصر إلى أعالى النيل فى القرن التاسع عشر بإيعاز من الدول إلا من رواد التبشير على وجه من الوجوه .

---

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الإسلام فى السودان » .

التبشير على الإجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الإسلام من الاستعمار فى القرن التاسع عشر على الخصوص – نوجز الموقف الذى تقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل فى مختلف الأقطار .

فالتقارير التى كتبها رسل التبشير مجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده إلى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو للكنيسة الإنجيلية ، ومنهم من يجتهد فى تحويل المسيحيين الشرقيين إلى مذهبه لأنه التحول من مذهب إلى مذهب فى ديانة واحدة أيسر من التحول من ديانة إلى أخرى .

وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبين فى أواسط إفريقية وفى الشرق الأقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعاً بين المسلمين إلى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمنغهام فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الإسلام فى السودان .

وجملة الموقف الآن أن جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الإسلام هدفاً لدعوة التنصير ، وهى تنظر إليه الآن نظرتها إلى منافس خطر فى بلاد الوثنيين من الأسيويين والأفريقيين ، وإذا أمنت خطره فقد تستريح إليه للتعاون على مقاومة الدعوة إلى المذاهب الهدامة أو مذاهب الإلحاد ، وبخاصة فى البلاد التى تصطدم لديها الكتلتان الشرقية والغربية .

ويبدو لنا أن هذه الجماعات فى الشرق إنما تطيل رسالتها لاستبقاء الإتاوات المخصصة فى بلادها ، ولو كان بقاؤها على قدر نجاحها فى التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد .

ولكن هذه الجماعات التى تمدها الإتاوات والحبوس من بلادها تتخفى بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو التطبيب أو الإحسان . ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ، نذكر منها أسلوباً صغيراً اختبره كاتب هذه السطور فى تشجيع بعض ذوى الأقلام وغمط الآخرين ممن يحذرون خدمتهم الثقافية ، فلا يخفى على أحد فى الشرق العربى أن كل ترتيب للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم بين قراء العربية لابد أن يرد فيه اسم كاتب هذه السطور فى آخر القائمة على الأقل إن لم يرد فى أولها ، ولكن

إحدى هذه الجماعات زعمت أنها تعنى بترتيب الكتب العربية التى تقرأ فى الشرق فلم يأت بينها ذكر لكتاب واحد ألفناه ، ولم تصنع شيئاً بهذا السفساف إلا أن تدل على النية المدخولة والتواء الأسلوب .. ومن دلالة كهذه يظهر ما وراء هذه الجماعات من الغرض ، وإن ابتعدت عنه فى الظاهر غاية الابتعاد .

* * *

الدعوات ونهضات الإصلاح

أتى على الأمم الإسلامية حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً .

حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، وهى عدة الأمم فى تنازع البقاء .

والويل للأمم التى تحرم هذه العدة فى الحالتين .

والويل لها إذا أحست نقصها ، والويل لها إذا غفلت عنه ولم تفطن لمصابها . فإن إحساسها بالنقص فى جميع هذه العدد يذلها وييئسها ويهون عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها .

أما الغفلة عن النقص فهى أشد عليها من الإحساس به إن كانت هناك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ، لأنها تزيد عليها حرماناً آخر لا تزال له بقية فيها ، وهو الحرمان من محاولة التبديل إن كان للمحاولة سبيل .

ويحدث فى بعض الأحوال أن تتماسك الأمة بعض التماسك لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ، وهى كبرياء تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخلة العارف أو أشد وأقوى . .

فالجنس الأصفر ينظر إلى الأمم الأخرى كأنها الغريب المتطفل على العالم لأن أوطانها فى عرفها هى مركز العالم ومحوره ، فلا محل فى خارجه لغير المتطفلين المشردين .

والجنس الأسود يعيب على جميع الأمم أنها لا تأخذ بعاداته ومراسمه ، واليونان الأقدمون كانوا يحسبون الناس ماعداهم فى زمرة واحدة هى زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس واليونان منهم أجلافاً مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهم عجماً ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها .

وكان للأمم الإسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنتمى إلى جميع الأجناس ، وقد تنتسب فى رقعة واحدة إلى البيض والسود والصفر كما تنتسب إلى الآريين والساميين والحاميين ، وأعلم من فيها يعلم أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى .

ففى هذه المحنة التى مرت بالأمم الإسلامية فى عصر الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهى عصمة الدين .

عصمها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التى حرمت مقومات الحياة وعدد الكفاح فاستسلمت ويئست وأيقنت أنها أقل من سائر الأمم فى جميع الصفات وأنها محتاجة من تلك الأمم إلى كل شىء .

وعصمها لأنها لم تهلك هلاك الأمم التى تجهل حاجتها وتغفل عن نقصها ، لأن نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفها بتبدل حالها وقبولها ما ليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه ..

بقى لها شىء يوحى إليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل شىء بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية .

ولم يكن هذا الشىء كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية فى الإنسان بل كان شيئا يليق بالإنسان لأنه منوط بأشرف مزاياه وهى مزية الضمير والوجدان .

بقى لها الإيمان بدينها .

بقى لها الإيمان بأنها فى حالة لن تدوم ، وأنها قمينة أن تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير ويعينها عليه .

ولم يزل الإسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين وعلم الدنيا وأن نبى الإسلام — فضلا عمن هو دونه — قد يقول لمن يهديهم إنكم أعلم بأمور دنياكم .

وانحلت المعضلة الكبرى على هذه الصورة التى لا صعوبة فيها على النفس المسلمة ، ففى وسع الدول المستعمرة أن تتغلب بسلاحها ، وفى وسع الأمم الإسلامية أن تدفعها بمثل ذلك السلاح إذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها .

هذه العصمة هى سر العقيدة الواقية الذى تلوذ به حين تخذلها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيها أمة متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها إلا علامة على الوهن والانحلال .

ولم تشعر الأمم الإسلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر الاستعمار .

لم تشعر به فى عهد الحروب الصليبية لأنها خرجت منها وهى مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها .

ولم يكن ثمة فارق فى عدد القتال بينها وبين الصليبيين فيدخل فى روعها أنها مطالبة باقتباسه مفتقرة إليه .

ولم يكن فى أحوال الصليبيين ما تغبطهم عليه ، بل كان الأكثرون منهم على حاله يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونها من التخلف والهمجية .

أما صدمة الاستعمار فلم تكن من هذا القبيل ، ولم تكن بالصدمة العابرة التى تمر فى ساعتها ولا تترك بعدها عبرة للمعتبر ولا أثراً للمتأثر ، بل كانت هى الصدمة الماثلة أمام كل نظر ، الملحة فى كل حين ، المتجددة فى كل جهة ، المعاودة على نحو واحد فى جميع الأقطار وعلى اختلاف التجارب والأحداث .

وقد تقدم فى خلاصة أحداث القرن التاسع عشر أن هزائم تركيا وإيران ومراكش ومصر كانت هى نقطة التحول فى تواريخ تلك الأمم وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحول إلا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وسيتبين من « رد الفعل » الذى أعقب هذه الهزائم أن « العالم الإسلامى » ولم يزل بنية حية تستجيب للمؤثرات وتستبقى منها ما صلح وأجدى .

وتلك هى العلامة الصادقة على كل بنية حية .

علامتها أن تستجيب للمؤثرات وأن تعالجها بما يصلح ويجدى ، فلا يبقى فى البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى .

إن رد الفعل الذى أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة إلى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة إلى البدعة التى لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة إلى حفظ الأصول واقتباس الجديد على توافق واتصال ، وكانت منه الدعوة الغالبة والدعوة المعتدلة ، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا إلا ما هو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة .

وسنعلم الأصلح من هذه الدعوات فى خلاصة سريعة لما أرادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلا له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول .

* * *

الدعوة الوهابية

كان أول هذه الدعوات فى تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى ولد فى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة ببلد العينية من نجد فى جزيرة العرب .

وسبق هذه الدعوة فى تاريخها يرجع إلى بساطة المجتمع الذى ظهرت فيه وإلى ابتعاده فى داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الأمم الإسلامية الأخرى التى تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع .

وقد ترجم له المولى محمود الألوسى صاحب تفسير « روح المعانى » وهو بعض مريديه فقال إنه « ابن سليمان بن على بن محمد بن أحمد ابن راشد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاض بن ريس بن زاخر بن محمد بن على بن وهيب التميمى النجدى صاحب الدعوة المشهورة » .

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد فى بلد العينية من بلاد نجد فى حجر أبيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى فى بلد العينية فى زمن إمارة عبد الله بن حمدبن عبد الله ابن معمر المشهور صاحب العينية التى تزخرفت فى أيامه ، وذلك قبل انتقال الشيخ عبد الوهاب إلى بلد حريملة من بلاد نجد . فقرأ الشيخ محمد على أبيه الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد فى صغره كثير المطالعة يكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينكر على أهل نجد كثيرًا من الأمور فلم يسعفه على ذلك أحد وإن استحسن إنكاره بعض الناس ، فسافر من بلده العينية إلى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه صار إلى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن إبراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد المجمعة المعروفة فى ناحية سدير من نجد ، والشيخ عبد الله هو والد الشيخ إبراهيم مصنف كتاب « العذب الفائض فى علم الفرائض » .

وروى الألوسى فى الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده يوماً فقال له : تريد أن أريك سلاحاً أعددته للمجمعة ؟ قال محمد بن عبد الوهاب نعم . قال : فأدخله منزلا فيه كتب كثيرة فقال : هذا الذى أعددت لها .

ثم استطرد الألوسى فقال إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنكر استغاثة النبى ﷺ عند قبره ، ثم رحل إلى نجد ثم إلى البصرة يريد الشام ، فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ محمد المجموعى من أعلى المجموعة محلة من محال

البصرة ، فأنكر أيضاً أشياء كثيرة على أهل البصرة فأحس الناس به فآذوه وأخرجوه وقت الهجيرة ، ولحق بعض الأذى بالشيخ محمد المجموعى أيضاً لمواتاته للشيخ محمد ، فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هارباً من البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير فى وقت الصيف فى شدة الحر وكان ماشياً على رجليه كاد يهلك من شدة العطش فوافاه رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجده من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله إلى بلد الزبير . ثم إن الشيخ محمداً أراد السفر إلى الشام فضاق زاده فانثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الإحسائى . ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبو الشيخ عبد الوهاب قد انتقل إليها من بلد العينية سنة تسع وثلاثين ومائة وألف بعد وفاة عبد الله بن معمر صاحب العينية فى الوباء الذى وقع بها فأفناها ، وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ، فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء العينية وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن عبد الله النجدى قاضياً ، فانتقل الشيخ عبد الله إلى بلد حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد إلى بلد حريملة لازم أباه وقرأ عليه وأظهر الإنكار على أهل نجد فى عقائدهم فوقع بينه وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس فى بلد حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفى أبوه الشيخ عبد الوهاب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف .

ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والإنكار على الناس ، وتبعه أناس من أهل حريملة واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلد حريملة قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة وكل منهما يدعى الرئاسة ، وليس فى البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لإحدى القبيلتين عبيد يقال لهم الحميان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فهم العبيد ليلا بقتل الشيخ محمد خفية ، فلما تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا بهم ، فانتقل الشيخ محمد من بلد حريملة إلى العينية ورئيسها يومئذ عثمان بن حمد بن معمر ، فلتقاه بالقبول وأكرمه وحاول نصرته وقال لعثمان : إنى أرجو إن أنت قمت بنصر (لا إله إلا الله) أن يظهرك الله وتملك نجداً وأعرابها ، فساعده عثمان فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشدد فى النكير على الناس فتبعه بعض أهل العينية وقطع أشجاراً كانت تعظم فى تلك النواحى وهدم قبة زيد بن الخطاب رضى الله عنه عند الجبيلة

فعظم أمره فبلغ خبره إلى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الاحساء والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل سليمان كتاباً إلى عثمان وكتب فيه : إن المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال ما قال فإذا وصلك كتابى فاقتله ، فإن لم تقتله قطعنا خراجك الذى عندنا فى الاحساء . وكان خراجه ألفاً ومائتين ذهباً وما يتبعها من طعام وكسوة .

فلما ورد الكتاب إلى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل إلى الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : ولا طاقة لنا بحرب سليمان ، فقال الشيخ محمد : إنك إن نصرتنى ملكت نجداً ، فأعرض عنه عثمان . وأرسل إليه ثانياً أن سليمان قد أمرنا بقتلك فى بلدنا ، فشأنك ونفسك وخلّ بلادنا ، وأمر فارسًا يقال له الفريد الظفيرى بإخراجه من البلد ، فركب الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه وليس معه إلا المروحة وذلك فى أشد الحر من الصيف فهم الفارس بقتله فى الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم وخلى سبيل الشيخ ... فصار الشيخ إلى الدرعية ، وكان ذلك سنة ستين بعد المائة والألف ، ووصل إليها وقت العصر فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العوينى ، فلما دخل عليه ضاقت به داره وخاف على نفسه من محمد ابن سعود صاحب الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جأشه وروعه ، وقال : «سيجعل الله لنا ولك فرجا ، فاستقر فأراد أن يخبر محمد بن سعود بحاله ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ إلى أخويه مشارى وثنيان ولدى سعود وزوجته موخى بنت أبى وحطان من آل كثير ، وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقذف الله محبة الشيخ فى قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله وقالت له إن هذا الرجل أتى إليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى إليك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها وألقى الله محبته فى قلبه ، ورغبوا محمد بن سعود فى زيارته لعل ذلك يكون سبباً لتعظيم الناس له وإكرامه . فسار محمد بن سعود إليه فلما دخل عليه فى بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة فقال له الشيخ : «وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد . وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم ...»

واستطرد الألوسى إلى تعاهد الرجلين على النصرة إذ قال الشيخ للأمير : «أماالأولى

فامدد يدك فمدها وقبضها وقال له الدم بالدم والهدم بالهدم ...[1] وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير منه ، أى من خراج أهل الدرعية . فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلى استقامة الشعائر » .

إلى أن قال : « ثم أمر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتثلوا أمره وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة إلى أن أدخلوهم إلى طاعتهم وحصلت إمارة بلاد نجد وقبائلها جميعاً لآل سعود بالغلبة ، وكان الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرته إلى رجلين أو ثلاثة ، وفى تاريخ ابن بشر إلى حمد وابنه عبد العزيز ، وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها إلى من يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئاً من ذلك إلا بأمره .. ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد واتسعت بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم كل صعب فعرض الشيخ أمور الناس وأموال الغنائم إلى عبد العزيز الأمير وانسلخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع عبد العزيز الأمير ولا أبوه أمراً ولا ينفذ حكماً إلا بأمر الشيخ محمد ، وتوفى الشيخ المشار إليه فى سنة ست بعد المائتين والألف ، وهى السنة التى غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر وأخذ أهله وكسب منهم أموالا كثيرة منها ثمانية آلاف بعير ، وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسها وقسم الباقى على جيشه .

قال الألوسى : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منها كتاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والأصولية .. وأعقب أربعة أولاد كلهم من أجِلّةِ العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ على والشيخ إبراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين » .

والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التى ذكرها المولى الألوسى هو كتاب « التوحيد ... حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركاً بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأخبار.

---

(١) أى دمى ودمك وهدمى هدمك . قال أبو عبيدة : كانوا فى الجاهلية الأولى إذا تحالفوا وتعاقدوا أوقدوا ناراً حتى تكاد تحرقهم . ويتصافحون عندها ويقولون الدم الدم والهدم الهدم . (انتهى) من شرح الألوسى .

والأولياء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعاذة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التى تحرم الاستسقاء بالأنواء ، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بقوله تعالى من حديث قدسى :

« ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذهب يَخْلُقُ كَخَلْقِى »

وبقول النبى عليه السلام فى رواية عائشة : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة فى تعظيم النبى عليه السلام مستشهداً بقول أنس : (إن ناساً قالوا يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال : أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل) .

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : هلك المتنطعون . هلك المتنطعون هلك المتنطعون .

ولا آخر للمناقشات التى دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو لآية بآية أو لحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الأحاديث ، فلا يعنينا هنا أن نفصلها أو نخوض مع الخائضين فى جدلها ، ولكننا نرى فى جملة ما تصفحناه من الآراء المتقابلة أن الإجماع منعقد أو يكاد على استنكار البدع والخرافات التى ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذى يخرج صاحبه عن الملة . وأكبر من خالف الشيخ فى ذلك أخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الإلهية ، وهو لا يسلم لأخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب فى غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم فى مناقشة أخيه فيقول إن من أصول أهل السنة المجمع عليها كما ذكراها « أن الجاهل والمخطئ من هذه الأمة يعذر بالجهل والخطأ حتى تتبين الحجة التى يكفر تاركها بياناً واضحاً لا يلتبس على مثله أو ينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام مما أجمعوا عليه إجماعاً جلياً قطعياً يعرفه كل من المسلمين » ويرى

أن البدع التى يمر بها الأئمة جيلا بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذى يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول فى ذلك : « إن هذه الأمور حدثت من قبل زمن الإمام أحمد فى زمان أئمة الإسلام وأنكرها من أنكرها منهم ولا زالت حتى ملأت بلاد الإسلام كلها وفعلت هذه الأفاعيل كلها التى تكفرون بها ولم يرو عن أحد من أئمةالمسلمين أنهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها . أتظنون أن هذه الأمور من الوسائط التى يكفر فاعلها إجماعًا وتمضى قرون الأئمة من ثمانمائة عام ولم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ ... نبهنا الله وإياكم من الضلال » .

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتاً فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها وإتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غبر على البادية زمان يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعى من وجوهه توسلا بأباطيل السحرة والدجالين حتى فى الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقاً على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات ، ولكن المهم فى الإصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذى يوقعهم فى بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات وأن يكون النهى على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر ، وهذا ما بقى للزمن أن يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب .

* * *

السّنوسية

وتقارب الوهابية فى عصرنا دعوة أخرى فى البادية هى السنوسية التى تنسب إلى السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الذى ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة ١٧٨٧) .

والدعوتان تتشابهان فى حماسة الدعوات البادية وفى نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك فى أمور كثيرة .

فليست السنوسية مذهبًا ولا نحلة ولا نقضًا لمذهب من المذاهب وإنما هى « أخوة » فى الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند اتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الإخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات فى غير العلم والإخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط فى درجاتها العليا أن تنحصر فى البيت السنوسى بل يكون منهم الأقرباء وغير الأقرباء .

والسنوسى مجتهد ولكنه يتبع مذهب الإمام مالك إلا فى القليل الذى صح عنده أنه أقرب إلى السنة ، ولا يتصدى بالنقض لأحد من الأئمة بل كان أبغض الأشياء إليه — كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشى فى رحلته — أن يسمع مقالة السوء فى إمام أو غير إمام . وقد تعرض للقتل من جراء اجتهاده وألمع الأستاذ الإمام محمد عبده إلى ذلك فى كتابه عن الإسلام والنصرانية إذ يقول : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسى كتب كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء فى كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد أو مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترئ الأستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة لو لاقاه وإنما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة » .

وقد اجتهد الشيخ فى مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث فى بلده وفى مراكش ولقى العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق فى المغرب

والمشرق ، ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التى كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحة جغبوب وبنى بها مسجداً ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا فى أرجاء العالم الإسلامى فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطرابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا فى كتاب « سنوسى برقة » الذى ألفه برتشارد على أسماء مائة وست وأربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون شيوخ هذه الزوايا مرجعًا لأتباعهم فى أمور الدين والدنيا يرشدونهم إلى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ويكفونهم عن الشر كما قال ابن مقرب :

فَكَمْ مِنْ حريمٍ قد أَباحُوا وأَجْحَفُوا
بمال غَنِيٍّ لا يَخافُون عَادِيا
فأَرْشَدَهُم للرُّشْدِ مَنْ حَلَّ بَيْنَهُمْ
فلا زال مَهْدِيًّا ولا زَالَ هاديا
وكم بَدَوِىٍّ فى الفَلا خَلْفَ ناقةٍ
« يَجُول » على الأَعقاب أَشْعَثَ حافِيا
تَلَقَّاه فى مَهْدِ الضَّلالَةِ هَاوِيًا
فأَصْبَحَ نجمًا فى الهِدَايَة عَالِيا
وكم مِنْ جَهُولٍ أَسْوَدَ الُّلونِ خِلْقَةً
كَسَاهُ لِبَاسَ العِلْمِ أَبيض صافِيا

ولا تبيح السنوسية الغلو فى تقديس المشايخ الأحياء أو الأموات ، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه ، ولكنها لا تمنع اللياذ بالمقامات للعظة والتبرك ، وشرعتها فى ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من عهد الأندلس فأرادت أن تجددها ولا تشعر أهل الصحراء بالتقحم عليها .

وكان الشيخ السنوسى — بخلاف الغالب على مشايخ الطرق — خبيراً بأحوال السياسة العالمية فوقر فى ذهنه أن النابلطان أى الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة فى يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوبًا وشمالا وشرقا وغربا ويهيئ فى جوف الصحراء ملاذاً لمن تقصيهم غارات المستعمرين عن السواحل ومدن الحضارة .

وتوفى الشيخ سنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبوب حيث بنى مزاره الكبير وخلفه على إمامة الطريقة ابن أخيه السيد أحمد الشريف .

وقد كان أثر الطريقة السنوسية فى المغرب والسودان والصحراء الكبرى أثراً صالحًا فى جملته وشهدنا ما لأبناء الشيخ وعشيرته من السلطان الروحى بين أهل البادية فى رحلتنا الانتخابية يوم كنا نرشح للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا السلطان ما لم تبلغه القوة ومخافة السطوة ، وحدث مرة أن واحداً من أصحابنا ألقى على جمع من البدو إلى جوار بيت السيد السنوسى بمرمى مطروح أكواباً من الورق المقوى لشرب الماء فتهافتوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم بالحسنى ، فما هو إلا أن نهض السيد إبراهيم وناداهم إلى قراءة الفاتحة حتى تركوا ما هم فيه جميعاً وقاموا يتبعونه فى تلاوتها ثم أومأ إليهم فانصرفوا بسلام .

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحى ينبسط إلى جوفها الأقصى ويهدى أبناءها مع حسن التعهد والقوامة إلى سبيل الصلاح والتعمير .

* * *

طرائق أخرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حركات كبيرة أكثرها من قبيل الطرائق و« الأُخُوَّات » التى تنشر الزوايا والخلوات فى البوادى الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنها طرائق تضارع فى كثرة أتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الإسلامية التى لا ترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر فى بيئاتها التى تلائمها فليست هى من قبيل رد فعل للعوارض السياسية أو الاجتماعية التى أصابت الدول الإسلامية فى القرون الأخيرة ، لأن أمثالها من حركات الاعتكاف قد ظهر قبل ستمائة سنة وشعاره الغالب عليه « دع الخلق للخالق » بخلاف الحركات الأخرى التى تتصدى لشئون السياسة بالتأييد أو بمقاومة تهيىء العدة للمستقبل فى هذا الميدان .

وأكبر الطرائق التى عاصرت الدعوة السنوسية على وجه التقريب طريقتان : إحداهما شاعت فى المغرب وشواطئه ثم فى السودان وآسيا الصغرى وهى الطريقة التجانية ، والأخرى شاعت فى الحجاز ثم فى مصر والسودان وهى الطريقة الميرغنية .

وتنسب الطريقة التجانية إلى تجان بالمغرب حيث أقام إمامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذى ولد بقرية « عين ماضى » سنة ١٧٣٧ ميلادية ، وكان شبابه من أتباع الطريقة الشاذلية ثم دعا إلى طريقته بعد أن جاوز الأربعين ، ومن آداب الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى أتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفية بمراكش ، ومنهم من بايع محمد سعيد باشا بمصر واعتبره من الزمرة التجانية ، ومنهم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثمانى عبد المجيد ، ولكنهم لا يقبلون الهوادة فى مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك فى ولائه أحداً غير إمام طريقته كأنه قابل لأن يتدرج من ذلك إلى المشاركة فى ولائه لنبيه وخالقه ، وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المعدودة إن « من أكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده ألا يشرك فى محبته غيره ولا فى تعظيمه ولا فى الاستمداد منه ولا فى الانقطاع إليه ويتأمل ذلك فى شريعة نبيه ﷺ ، فإن من سوى رتبة نبيه ﷺ برتبة غيره من النبيين والمرسلين فى المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع إليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على أن يموت كافراً إلا أن تدركه عناية ربانية » .

ويعرف أتباع التجانية فى السودان باسم « الفلاتة » وهو الاسم الذى يطلق فى الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطىء إفريقية الغربية ، ومن أتباعها من يقيم الآن فى آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حريته فى نشر الدعوة إلى الطريق وإلى شعائر الدين .

ويرجع الفضل الأكبر فى انتشار الطريقة الميرغنية إلى السيد محمد عثمان الميرغنى المتوفى سنة ١٨٥٣ ميلادية ، أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس بالحجاز . وقد زامله فى هذه التلمذة السيد السنوسى الكبير ، وكلاهما عالم فقيه واسع التحصيل ولكن الميرغنى أقرب إلى خلائق العزلة والتعمق فى الأسرار الصوفية ، وزميله السنوسى أقرب إلى خلائق الدأب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والأمراء يتتبعون أخباره ويخشون بأسه من سلطان القسطنطينية إلى سلطان دارفور ، وكان المحافظون من العلية والرؤساء فى الحجاز يميلون إلى الطريقة الميرغنية ويوجسون خيفة من شيوع السنوسية بين أهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التلميذان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا فى مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم .

كان الشاغل الأكبر للسيد محمد عثمان فى شبابه أن يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا إليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن إدريس . وقد ندبه أستاذه للدعوة باسمه فى مصر والسودان فبرح الحجاز إلى القصير وقصد إلى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين . وبرح مصر من ثم إلى السودان ونجح نجاحاً طيباً بين أهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة . ثم قفل إلى الحجاز وواظب على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير إلى يوم وفاته (سنة ١٨٣٧) ولكنه أحس العداء ممن كانوا ينافسونه فى مكة فعكف على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه فى نشر الدعوة إذ اتجه السيد محمد سر الختم إلى اليمن واتجه السيد الحسن إلى سواكن فالتف به المريدون من قبائل بنى عامر والحلانقة وأكثرهم من البجاة .

ولم تظهر فى العهد الحديث طريقة أكبر من هذه الطرق الثلاث : وهى السنوسية والتجانية والميرغنية ، ويستلفت النظر أن هذه الطرق جميعاً تشيع بين السنيين وقلما تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة الإمامية ، ولعلها بين السنيين بديل من اعتقاد الشيعة فى الإمامة المنتظرة بشروطها الخاصة التى يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهدية ، وهى دعوة كبيرة يشتد الشيعة أنفسهم فى محاسبة من يجترئ عليها فلا يتيسر برهانها ولا تخلو من المخاطرة لأنها تصطدم بسلطان الدولة وسلطان الدين .

المصلحون والمعلمون

١ - السيد أحمد خان :

تقدم أن النهضة الإسلامية فى القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الإصلاح : إصلاح بالعودة إلى القديم ، وإصلاح بالتجديد ، وإصلاح بإحياء الحماسة الدينية ، وإصلاح بمجاراة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون وأخرى يقوم بها المتطهرون المعتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقوم بها المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هذه الدعوات - دعوات المعلمين المهذبين - كانت ألزم دعوات الإصلاح وأبقائها أثراً وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثاً كيفما كانت أحوال الأمم التى تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيها .

وقد ظهرت فى أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفى الزمن الذى ينبغى أن تظهر فيه .

ظهرت فى الهند وفى مصر وفيما بينهما من بلاد الشرق الأوسط ، وكان قادتها على هذا الترتيب الزمانى السيد أحمد خان الهندى والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهو المصلح المخضرم بين عصر الجمود وعصر اليقظة والتقدم .

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهى بالهند ولا يزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لأبيه وأمه من كبار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد أنعم عليه بهادر شاه - آخر ملوكها - بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة والده ، ولما يبلغ العشرين .

وكان التقليد المرعى بين مسلمى الهند مقاطعة الوظائف فى ظل الحكم الانجليزى ، ولكن نشأة أحمد خان بين رجال الدولة رشحته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التى عرضت عليه فى سلك القضاء .

وانفجرت ثورة الهند « ١٨٥٧ » وهو قاض فى بجنور فحال جهده بين الثوار وقتل المسالمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه فى الثورة فيلقى تبعتها على الإدارة الانجليزية ويدحض ما قيل من تدبير هذه الثورة فى بلاد الأفغان بإيعاز من الحكومة الروسية ، « لأن أسبابها الوطنية كافية لنشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل إليها من خارج البلاد الهندية »

روى عن السيد أحمد خان وهو طفل صغير أنه دعى مع أنداده وأهليهم إلى بلاط بهادر شاه فنودى عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافأتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولا جواب، ثم وجده رجال الحاشية منزوياً فى مكان قريب فسألوه : لِمَ لَمْ تُجب حين نودى باسمك بين زملائك فلم يحجم أن يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وضحك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال فى حضرة ملك ، فلم يشأ الصبى الصغير أن يتلطف فى الاعتذار ويتعلل بسبب غير هذا السبب الصحيح .

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الأربعين ، فإنه كاشف أبناء قومه بعلة جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتملقهم ويخفى عنهم أسباب قصورهم وعجزهم وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة وما يقع عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه التبعات فى رأيه أنهم « نائمون » .

وقد وصف السيد أحمد خان بالأناة والحذر ، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة فى أناته وحذره . ولكنهم لو وصفوه بالإقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الأناة إن كان معنى الأناة أن يتخلف المتأنى عن العمل فى حينه ، فما توانى أحمد خان عن مصارحة الإنجليز بتبعاتهم وعيوب إدارتهم ، وماتوانى عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم ، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذى يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل وتفاوت النسبة فى توزيع السكان ، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مغبة العجلة ولا يؤمن بجدواها ، وكانت هذه الأناة منه أدل على الشجاعة من الهجوم السريع ؛ لأنه كان يغضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل فى غير جدوى .

وقد عرف مكامن الضعف فى قومه ولم تخف عليه مكامن القوة فى الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدأ بإرسال ابنه إلى الجامعات الإنجليزية واعتزم أن يصحبه إليها ليطلع بنفسه على حقائق الحضارة الأوربية فى بلادها ، وقد لخصها فى جوهرها أحسن تلخيص فجمع حقائقها النافعة فى كلمتين : وهما العلم والخلق ، ورأى الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين ، فلخص برنامج الإصلاح عنده فى الدين المستنير ، وجعل شعاره كله كلمة واحدة يعيدها مرات وهى : علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ، ثم تعلم ، ثم تعلم ، بغير انقطاع عن التعلم أو التعليم .

ولما توفى وهو فى الحادية والثمانين كان للمسلمين فى الهند مدرسة كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ما هو أهم من ذلك وألزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التى لا تخفى على ذى عينين ،وقد خطا السيد أحمد خان هذه الخطوة التى أحجم عنها معاصروه لأنهم لا يعرفونها ولا يجسرون عليها ، فعرفها و لم يحجم عنها . وقال من قال إنها لخطوة عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا إنه قد أطال الأناة فيها ، ولكنهم مجمعون على أنها هى الخطوة التى لابد منها فى البداءة ، فلا تتأتى الخطوات التالية إلا بعد الإقدام عليها ، وقد أقدم عليها فاتبعه فى الطريق من يؤثر العجلة ومن يؤثر الأناة .

٢ – جمال الدين :

والمعلم الأكبر جمال الدين من أبناء الأقاليم الوسطى . بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكأنما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الإسلامى ويتولى فيه دعوة الإصلاح والتعليم من أقصاه إلى أقصاه .

والقول المشهور إنه هو وآباؤه وأجداده من أبناء الأفغان ، ويقال غير هذا إنه ولد بقرية « أسد أباد » فى جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل إلى الأفغان وتعمد إخفاء نسبته الفارسية بعد أن تجرد لدعوة الإصلاح فى العالم الإسلامى كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لأنه من رعاياه ، فضلا عن غلبة المذاهب السنية على البلاد التى خاطبها بدعوته ومنها بلاد الترك ومصر وسائر البلاد العربية .

إلا أنه لا خلاف فى نشأته منذ صباه فى بلاد الأفغان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة ودرس علم الكلام وهو خلاصة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة فى كتب الأقدمين ، وكان فى أخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلا من الإنجليزية ، عدا الفارسية والعربية التى كان يتكلم الفصيح منها بلهجة الفرس المستعربين .

وإذا لخصت رسالة جمال الدين فى كلمتين فرسالته بالإيجاز هى « الجامعة الإسلامية» ؛ ولكن الجامعة الإسلامية كما أرادها جمال الدين شيء غير الجامعة الإسلامية التى يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعاً إلى حكومة واحدة ، وإنما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة أحوال الأمم التى درج جمال الدين وهو يستمع إلى أخبارها ويشترك فى شؤونها ، وهى بلاد الأفغان وإيران ، وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه فى أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزمن قليل .

فقد فتح السيد عينيه على بلاد الأفغان وفارس وهى على أعنف ما يكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الأمتين فى المذهب والخلاف بينهما على الحدود كما تستغل حاجتهما إلى المال والسلاح ، فتغرى إحداهما بالأخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ما تقوى به على جارتها وتشترط عليها ألا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها وإلا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تأذن بالصلح إلا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية .

وربما سكن القتال بين الأفغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بإيعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بغنيمة للإنجليز أو للروس وخسارة على الأفغان والفرس والترك أجمعين .

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك أن العلاج السريع لهذه المحنة إنما يبدأ بالتوفيق بين الأمم الإسلامية وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيراً أن يرى هذه الأمم كما قال « متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد » مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين . فعقد عزيمته على رسالة واحدة يتحراها مدى الحياة وهى حسم الخلاف بين الأمم الإسلامية وإيصاد الأبواب على المستعمرين والمستغلين حتى تنقطع المطامع التى تسول لهم العدوان على الأمم الإسلامية وإيقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها .

وهذه الجامعة الإسلامية كما أرادها جمال الدين ، وفى سبيلها رحل إلى الهند وبلاد العرب والآستانة ومصر وروسيا وفرنسا وإنجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت المستشرق الأيرلندى ، قاصداً إلى الولايات المتحدة ليتجنس بالجنسية الأمريكية ويستثير الأمريكيين على الإنجليز والروس وكان قد سمع بمساعى الأمريكيين فى الشرق الأقصى فخطر له أن يستخدمها فى قضيته ، ولكنه أقام أشهراً فى الولايات المتحدة على قول مستر بلنت فعدل عن عزمه ولم يتمم ما نواه من رحلته ، ولعله عرف بالخبرة الواقعة أنه يعلق الرجاء حيث لا رجاء .

وقد خطر لجمال الدين يوماً أن يرسل تلميذه الشيخ محمد عبده إلى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها إلى خدمة الجامعة الإسلامية ، وخطر له فى مصر أن يسقط الخديو إسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على إسماعيل من يغتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعاً لنصائحه ووصاياه .

وقد توسل جمال الدين فى رسالته بكل وسيلة تملكها يداه فأصدر فى أوربة صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضياء الخافقين » وأنشأ فى مصر محفلا ماسونياً بعيداً من سيطرة المحافل الأجنبية ، وقيل إنه ألف فى مكة المكرمة جماعة « أم القرى » وهم بالسفر إلى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم يهدأ قط فى حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة الإسلامية ، واتهمه السلطان عبد الحميد بالعمل فى الآستانة على استمالة الخديو عباس الثانى إلى تنفيذ مساعيه يوم زارها فى ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به (سنة ١٨٩٧) وحظر السلطان الاحتفال بجنازته فلم تشيعه إلى مقره الأخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحياة ولم تتحقق مساعيه لأنها أكبر من أن تحققها جهود جيل واحد ، غير أنه أحسن بذر البذور فلم تمت فى تربتها الصالحة ، وحق لمترجمه أن يقول إن تاريخ الشرق الإسلامى فى ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ جمال الدين .

٣ – محمد عبده :

هؤلاء المصلحون المعلمون الثلاثة نشأوا كنشأة الإخوة فى أسرة واحدة : ولد السيد أحمد خان فى سنة ١٨١٧ ، وولد السيد جمال الدين فى سنة ١٨٣٩ ، وولد الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ ... وكان بينهم من التخصص على غير قصد ما يشبه توزيع الوظائف فى المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذى يستطيعه حيث يستطاع ، ولم يكن للعالم الإسلامى غنى عن واحد منهم فى موضعه أو فى مهمته كما فرضتها عليه دواعى الإصلاح .

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الأستاذ الإمام » .. لأن هذا اللقب يلخص رسالته فى الإصلاح بين زميليه أحمد خان وجمال الدين .

فهو مصلح معلم كالسيد أحمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالإمامة الدينية التى لم يتهيأ لها السيد أحمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على إيقاظ المسلمين وتنبيههم إلى حاجتهم من العلم الحديث .

فالشيخ محمد عبده أستاذ إمام ، ورسالته هى التعليم والإمامة فى وقت واحد . وفحواها أنه خرج من تجاربه كلها بنتيجة واحدة وهى فساد الجو السياسى من حوله ، فلم يبق له أمل فى إصلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الإيمان فانصرف بعزيمته كلها إلى رفع الحجر عن العقول بإجازة الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيراً يطابق العلم الحديث .

وتبدو هذه الكلمات سهلة هينة لمن يقرؤها فى العصر الحاضر ، ولكنه يعرف صعوبتها - بل خطرها - إذا عرف أن القول بدوران الأرض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع أعداء الدين على إفساده ، وأن استخدام التليفون حرج شديد لأنه قد يكون من آلات الشيطان وأفاعيل السحرة « المتشيطنين » .

وقد بدا للأستاذ الإمام عبث السياسة وهو يعاون السيد جمال الدين فى مساعيه الأوربية ، فكان يعاوده له المشورة بتركها والإقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حيناً بعد حين : إننا إذا علمنا عشرة وأرسلناهم فى أرجاء العالم الإسلامى فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح فى العالم الإسلامى مائة مرشد فألف مرشد بعد ثلاثين أو أربعين سنة ؛ وذلك أوثق وأوفق من عملنا الضائع بين الساسة والأمراء ... وكان السيد جمال الدين يستمع إليه مرة ويحتد فى جوابه مرة أخرى فيقول له : إنك لمن المثبطين .

وقد بدأ الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الأزهر . فألقى بعض الدروس (سنة ١٨٧٩) فى دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها وألزم المقام بقريته « محلة نصر » بإقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض ووكلت إليه الإشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العرابية وهو فى تلك الوظيفة ، وقد اشترك فى الثورة حتى أفلت العنان من يديها فأنف من خذلانها فى أحرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفى إلى خارج البلاد ، فاتخذ من النفى فرصة لنشر الدعوة إلى الحرية الفكرية وضاق به المقام فى بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين فى باريس ، وتعاونا معاً على إصدار صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عدداً حتى ضربت حولها السدود فى البلاد الإسلامية فتعذر المضى فى إصدارها ، واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص إلى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والانجليزية يومئذ من التنافس على اجتذاب أقطاب المسلمين ، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة إلى بيروت ليقيم فيها مشتغلا بالدراسات الأدبية ، وفى هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين فى الرد على الدهريين .

ثم عفى عن المنفيين فعاد إلى القاهرة وتولى القضاء قاضياً فمستشاراً بالمحكمة العليا ، وشغله فى وظيفته بالقضاء الأهلى أن ينظر فى إصلاح المحاكم الشرعية وفى تجديد نظام

التعليم بالجامع الأزهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شؤونه العلمية والإدارية وندب للعمل فى هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الإفتاء فلم ينقطع فى هذا المنصب عن إلقاء الدروس بالجامع الأزهر وإصلاح التعليم فيه .

واستفاضت شهرة الشيخ فى العالم الإسلامى من تخوم الصين ومراكش إلى إفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون فى استجازة ما يجوز وتحريم ما يحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجمود الجامدين حائرون فيما يأخذون وما يدعونه من أمور الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى « الترنسفال » التى أقامت الدنيا وأقعدتها عدة شهور ، لأنه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب ولبس ملابسهم ، كما أفتى بالإجازة فى أمر صناديق التوفير توضيحاً للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الأسئلة تتقاطر على « المفتى » من أرجاء العالم الإسلامى فيبادر إلى الإجابة عنها على ما فى الجواب أحياناً من العنت والاصطدام بجهالة الجامدين ومنافعهم الموروثة فى كل قطر من أقطار المشرق والمغرب ، ولا يغلو من يقول إنه فارق الدنيا — وهو فى الخامسة والخمسين من عمره — وله فى كل بلد إسلامى دليل ينير الطريق من فتاواه ودروسه وسيرته التى ارتفع بها مكاناً عالياً من النزاهة النادرة والخلق المتين .

* * *

الساسة المصلحون

وعلى الجملة ينبغى أن يقال إن هؤلاء المصلحين المعلمين قد عملوا غاية ما فى الوسع للإصلاح والتنبيه وإقامة القدوة المثلى لمن تابعهم من المصلحين والمنبهين .

إلا أن الحقيقة الواقعة تستوجب علينا أن نقول إن أعمال ثلاثة أو ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى من حث العالم الإسلامى واستنهاضه لو لم يكن لهم سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وإن يكن جيشاناً مبهماً يتخبط بين غواشى الظلم والظلام .

وفضل العقيدة هو الفضل الأكبر فى إعداد النفوس للاستماع من المصلحين والإيمان بوجوب التغيير والاتجاه إلى وجهته القويمة ، ومن ثم وجدت فى الحكومات الفاسدة نفسها عوامل اليقظة والانتباه إلى التغيير أو الإصلاح ، فوجد فى إيران وزير كميرزا تقى خان يحاول أن يحد من سلطان الشاه ناصر الدين ، ووجد فى تركية رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا من السلطان عبد الحميد ، ووجد فى مصر رجال كمحمد شريف وأحمد رياض قبيل انفجار الثورة العرابية ، ووجد فى المغرب أمثال خير الدين ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لابد لها من معقبات وآثار .

* * *

المهديون

من أقوى الدلائل على عمق الأثر الذى تركته ضربات الاستعمار فى أرجاء العالم الإسلامى هذه الظاهرة المتفقة التى تواترت فى تلك الأرجاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه فى تلك الأرجاء فلم يكن فى العالم الإسلامى كله بلد خلا كل الخلو من إحداها .

فكما توزع العالم الإسلامى دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الطرق الصوفية ودعوات التجديد أو العودة إلى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات أخرى من نوع آخر وهى دعوات المهديين الذين زعموا أنهم مبعوثون على موعد وأنهم رسل الخلاص والنجاة ... فظهر منهم من ظهر فى الهند ، وظهر منهم من ظهر فى الرقعة الوسطى من أرض فارس ، وظهر غيرهم فى وادى النيل ، ومن قبل رأينا أن هذه الأقطار هى التى أخرجت للعالم الإسلامى السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وأخرجت كذلك رواد الساسة والوزراء .

ظاهرة تدل على قوة الأثر وتدل كذلك على حياة البنية التى تستجيب لكل فعل برده الذى يناسبه فى حينه ، وليست البنية هنا إلا العقيدة التى هى مرجع تلك القوة وتلك المقاومة .

والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه كيفما كان .

وأشهرهم فى عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا على الملقب بالباب وقد ظهر فى إيران ، وميرزا غلام أحمد القاديانى وقد ظهر فى الهند ، ومحمد أحمد عبد الله وقد ظهر فى السودان .

والغالب – على اعتقاد المؤرخين – أن المهديين قوم خادعون يتعمدون الكذب فى دعوتهم ويسرون غير ما يعلنون من طلب الإصلاح والعناية بشئون الدين .

ولكن الكذب المحض فى أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول ... والأقرب عندنا إلى المعقول فى أمرهم أنهم عاشوا فى فترة انتظار متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة

« صوفية » فى أكثر الأجيال فاشرأبت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فأشفقوا أن ينكلوا عن هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا فى صدق الوعد مع العمل والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقدة من هواجس ضمائرهم ومما أحاط بهم من عقائد أتباعهم من ضرورات المواقف المتلاحقة التى لا يسهل الخلاص منها ، فأسلموا أنفسهم للحوادث واعتذروا لها بحسن المقصد وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج فى المكابرة والمغالطة لأنه لا يأمن التراجع ولا يقدر عليه ، ومنهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين .

ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه فى البداية وأقلهم ثقة بها فى النهاية ولهذا كان أبعدهم عن العقيدة السوية فى الإسلام .

(١) الباب :

وأول نشأة البابية فى عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كاظم الرشتى الجيلانى ولد فى أول القرن الثالث للهجرة (سنة ١٢٠٥) وتتلمذ على يد الشيخ أحمد الإحسانى الذى ولد فى البحرين وجال فى بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة والمتصوفة ، ودان بمذهب الحلول مع تغليبه لمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية .

وقد أخذ كاظم الرشتى مبادىء الفلسفة والتصوف عن هذا الشيخ الذى تنسب إليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من أستاذه أن المهدى المنتظر سابح فى عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد خلافاً لاعتقاد الإمامية أنه محتجب بجسده إلى أن يحين يوم الفرج الموعود وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيبوبة .. فتسمى باسم باب المهدى أو باب الدين ، قال إن المهدى إنما يأتى إلى الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد الإسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه عقيدة كعقيدة الحلول يزعم من آمن بها أن جسده يستنزل إليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين .. وسبقه أصحابه إلى دعواه فزعموا له أنه تلبس بروح الإمام على رضى الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدى الموعود ، وأنه صاحب كتاب يسمى البيان هو المشار إليه فى القرآن بقوله تعالى :

«الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان » . (الرحمن ١ – ٤)

وتلا على الناس سوراً من هذا الوحى فعابوا عليه أخطاءه النحوية فتعلل لها بعلة توائم دعوته التى تحلل المؤمنين بها من قيود العقائد السالفة ، وقال إن الكلمات لما علمها

الله آدم عصت كعصيانه فعاقبها الله وقيدها بقيود الإعراب ثم أذن له أن يطلقها فهى بعد اليوم فى حل من تلك القيود ! .

وقال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الدرية فى تاريخ ظهور البابية والبهائية : إن حضرة الباب وضع كتاب البيان ورتبة على تسعة عشر واحداً وقسم كل واحد إلى تسعة عشر باباً والآن نقول : إن أبواب هذا الكتاب تكون إذن من حيث الجملة والمجموع ثلاثمائة وواحداً وستين باباً وهذا العدد ينطبق على مجموع أعداد حروف (كل شىء) إذا استخرجت بحساب الجمل ، وقد خصص حضرته الواحد الأول لنفسه والثمانية عشر واحداً الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحداً ، ولما كان حاصل جمع أعداد حروف (ص) إذا استخرجت بحساب الجمل ثمانية عشر لذلك سمى أصحابه المشار إليهم حروف ص ونسب انتشار الحركة الروحية ونفخ الحياة الإيمانية التى برزت وظهرت تحت ظل البيان إلى تلكم الأصحاب ، ولكن حضرته لم يكمل بقلم كتابة جميع هذه الأبواب وإنما تم كتابة آحاد ثمانية وتسعة أبواب من الواحد إلى التاسع فقط تاركاً كتابة البقية الباقية . ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان ويتصفح ما كتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة إتمام بقية الكتاب إلى حضرة بهاء الله . وكذلك من طالع كتاب البيان ودرسه بإمعان وسبر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى إلى تشريع كامل مستقل بنفسه ولا إلى أحكام قائمة على حدة دونت لتقوم باحتياجات أمة فى دورة كاملة من دورات الزمن ، وإنما يفهم منه أمران : الأمر الأول حل نظريات اعتقادية إسلامية ومشكلات مهمة أصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الإسلام ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم فى الرأى . مثال ذلك أن جمهوراً فهموا من القيامة أنها حشر الموتى بأجسادهم الأولية بعد قيامهم من هذه الأجداث الترابية وذهب آخرون إلى تفسيرها بظهور المهدى المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم الحياة الإيمانية من الإيمان به والإيقاف بصدقه والتخلق بالأخلاق الفاضلة الإلهية ، وكذلك اختلفوا فى معنى الرجعة فذهبت قبائل إلى أنها عبارة عن رجعة الأئمة السابقين بأجسادهم ولم تزل هذه القبائل تتصور ذلك إلى اليوم ، وآخرون توصلوا إلى خرق حجب الظواهر وإماطة البراقع عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا أن المغزى من الرجعة هو رجوع الآثار والصفات التى كانت كالمعنى الذى يفهم من قول القائل عند امتداح فتى بالشجاعة إن فلاناً رجعة رستم « وهو بطل الفرس المشهور » .

وفى هذه النبذة ما يكفى للوقوف على نهج الباب فى تأسيس قواعده وعقائده ، وهى مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات الباطنية ومحاولات التوفيق بما هو أقرب إلى التلفيق .

أما فرائض البابية فالصلاة عندهم ركعتان فى الصباح ، والكعبة عندهم مسجد فى شيراز ، ثم البيت الذى ولد فيه الباب بمدينة تبريز ، والصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت ليوافق عيد الفطر يوم النوروز أول الحمل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولا يجوز الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولا حرج فى شرب الشاى والقهوة ، وهذه الأحكام تسرى بعدد حروف « المستغاث » بحساب الجمل إلى نيف وألفى سنة ، ثم يظهر بإذنه إمام آخر يعيد النظر فى جملة تلك الأحكام .

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدى خان فى كتابه مفتاح باب الأبواب أنه « كان من جملة دعاته امرأة فتية بارعة الجمال متوقدة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلمة[1] من بنات أحد المجتهدين فى العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الإسلام وآمنت بذلك الرجل — أى الباب — عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقبت بذلك ... ولما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة فى مازندران جيشت جيشاً قادته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة إعانتهم ، وفى أثناء الطريق قامت فى الناس خطيبة وقالت : أيها الناس ! إن أحكام الشريعة الأولى — أعنى المحمدية — قد نسخت وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن فى زمن لا تكليف فيه بشىء ... فوقع الهرج والمرج وفعل كل الناس ما كان يشتهيه من القبائح ثم قبض عليها وألبست البرقع جبراً وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تلعب النار بالحطب الذى أعدّ لإحراقها » .

ويختلف فى نسب الباب ، ولكنه على الأشهر ينتمى إلى أب بزاز يسمى ميرزا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم سنة ١٢٣٥ هجرية ، ومات أبوه قبل فطامه فرباه خاله ميرزا سيد على التاجر وعلمه الفارسية والعربية وإتقان الخط . أما أتباعه فيزعمون أنه لم يتعلم وإنما كان أمياً يكتب بإلهام من الله ، وقد شغل فى صباه بالرياضات الصوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل إنه كان يصعد فى بلدة أبو شهر إلى أعلا البيت عارى الرأس ويمكث فى الشمس فى الهجيرة إلى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة اثنين وأربعين (سنتجراد) ثم تعتريه من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة أياماً

(١) قال الدكتور فى التعليق على هذا أن الصحيح أن اسمها زرين تاج .

على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقبى الرياضات الشاقة فأرسله إلى كربلاء أملا فى شفائه على أيدى الأئمة والمجتهدين ، ولكنه أمعن هنالك فى رياضاته وتراءت له الأشباح فى خلواته ، فكاشف أناساً صدقوه لأنهم كانوا على رقبة الإمام الموعود ، ثم استفحل أمره واجترأ أتباعه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم فى معتقده ، وهبت الثورة باسمه فى زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره على العلماء فتحرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطاً فى عقله غير مسئول عن فعله ، وأفتى غيرهم بوجوب القتل اتقاء للفتنة ، فسجن ثم قتل (فى سنة ١٨٥٠) وحدث عند إطلاق الرصاص عليه فى زعم البابيين أنه ظل واقفاً لأن الرصاص قد أصاب قيوده ولم يصبه فى مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير البابيين يقولون إنه مات وألقيت جثته فى خندق فأكلتها السباع .

وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى الذى نعته بصبح أزل ، فانتقل صبح أزل إلى بغداد ومعه أخوه ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة إلى فرقتين تعرف إحداهما باسم الأزلية وتعرف الأخرى باسم البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة فى البلاد الإسلامية وغيرها ، ولم يبق من أتباعهما فى العصر الحاضر غير القليل .

٢ — مهدى السودان :

أشرنا فيما تقدم إلى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد فى العالم الإسلامى عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق بغزوات الاستعمار ، ونضيف إلى هذه العلامات علامة أخرى فى هذا الصدد نلمحها فى التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر من أخبار الدعوات والحركات العامة ، وبخاصة ما كان من أخبار الثورة والتغيير ، فلم يكد داعيه البابية يلقى مصرعه حتى تسامع بهذا المصير مسلمو الهند وأفريقية الشرقية والوسطى على التخصيص وهى قديمة الصلة ببلاد إيران لاتنقطع عنها أخبارها من صدر الإسلام ، وقد ترجع هذه الصلة إلى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية .

ولو كان الباب قد انتصر فى معاركه مع جند الحكومة الإيرانية لكان هذا الانتصار خليقاً أن يوصد الطريق على من يطمحون إلى ادعاء المهدية بعده ، ولكن خذلانه على نقيض ذلك قد فتح الطريق فى الهند وإفريقية ومواطن شتى لمن يطمحون إلى نصيب خير من نصيبه ويؤمنون فى سريرتهم بصلاحهم وصلاح أوقاتهم للقيام بالرسالة المهدية .

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب : « محمد أحمد » الذى اشتهر باسم المهدى السودانى ، ويلفت النظر فى هذا المقام أن دعوته الأولى كانت باسم الإمام الثانى عشر الذى يترقبه الشيعة الإماميون ، وقد نشأ بين أهل الطريق وقرأ أشراط الساعة فى كتب محيى الدين بن عربى واطلع على قول ابن حجر والسيوطى إن من هذه العلامات خروج صاحب السودان ولم يكن فى السودان يومئذ من يشك فى اقتراب الساعة لسوء الحال وشيوع الفساد واجتراء المفسدين على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان بدلا من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية فى إيران تهيأت الأذهان فى البلدان الأخرى لقبول دعوة غيرها يكتب لها النجاح ، ووافق ذلك سخطاً عاماً بين كبار الزعماء الذين كانوا يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين أرهقتهم الضرائب وبين التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع المنازعات بين مصر والسودان والحبشة فتهيأت العقول للإصغاء إلى دعاة الإصلاح أو دعاة التغيير كيف كان .

وينتسب المهدى إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويقال إن أجداده الأقربين أقاموا بإقليم المنيا زمناً بعد مقامهم إلى جوار الفسطاط ، ثم انتقل بعضهم إلى بلاد النوبة ، ثم استقروا فى دنقلة ، ثم انتقل أبوه عبد الله إلى الخرطوم فعمل فيها بصناعة السفن وتوفى بقرية كررى إلى جوار أم درمان .

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة (سنة ١٨٤٥) وفى مكان مولده خلاف ، إلا أنه على القول الأشهر قد ولد بجزيرة لبب ومات أبوه وأمه وهو صغير .

ودرج الطفل الصغير فى موطن يكثر فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير فى يتمه وفى المشابهة بينه وبين النبى عليه السلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فمال إلى النسك والعبادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفاً من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصارمة فاجتنب الملاهى وحرم على نفسه ما يستباح من غشيان مجامع الطرب والغناء وكانت صرامته هذه مثار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لأنه سمح لتلاميذه ومريديه بالغناء والرقص فى الاحتفال بختان أبنائه ، فأنكر عليهم محمد أحمد هذه المجانة .. وغضب عليه أستاذه ففارقه ولاذ بشيخ آخر من شيوخ الطريق بجزيرة أبا إلى أن استقل بالمشيخة وناهز الأربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التعايشى من المشتغلين بالتنجيم فطابق ما عنده من علامات الحروف والحساب على

المهدى وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدى الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء فى بعض النبوءات .

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حملة هكس وهى حملة لم يكن لها نظام ولا مدد من الذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافا من المجندين المرفوضين فى القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن إرسال المال اللازم والعدة الضرورية لتسيير الحملة إلى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل لقائدها غير أربعين ألف جنيه من المائة والعشرين ألفاً التى طلبها ، وأبرق اللورد جرانفيل من لندن إلى القاهرة فى السابع من شهر مايو سنة ١٨٨٣ يعلن « أن حكومة جلالة الملكة غير مسؤولة بحال من الأحوال عن حملة السودان التى تولتها الحكومة المصرية بأمرها ولا هى مسؤولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله »،ونشب الخلاف بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف فى وقت واحد بعد أن تسامع أهل السودان جميعاً بتأهب الحكومة لتجريد حملتها منذ عدة شهور ، واستبد هكس برأيه فى اختيار الطريق مع ندرة الماء وارتياب الخبراء بأمانة الأدلاء . فوقع الجيش فى كمين بعد كمين ثم فوجىء بضعفى عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش والجوع والتعب فلم يفلت منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد الدراويش أكثر من عشرين ألفاً قتل منهم بضع مئات وبلغ القتلى من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف .

كانت هذه الكارثة ذريعة لإكراه الحكومة المصرية على إخلاء السودان ، فانحصرت القوة التى رفضت الإخلاء بقيادة جوردن فى مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذا لسياسة الإخلاء وتمهيداً لإعادة فتح السودان باسم جديد ، فاضطرت المدينة بعد اليأس من النجدة إلى التسليم .

وقد تقدم أن القوم عاشوا ردحاً من الزمن يترقبون ظهور المهدى المنتظر ويتخيلون أنهم يلمسون حولهم أشراط الساعة من عموم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الإيمان ، وقد شهدوا انتصار صاحبهم على الجيوش التى حسبوها من قبل قوة لا تغلب فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دعواه ، ومن بقى من دهمائهم منكراً لهذه الدعوى فإنما كان ينكرها لأنه يأتم بإمامه لا تقبلها ولا تقول فى علامات المهدية بقولها ، ومنهم أتباع الميرغنية والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع إلى فتاوى العلماء خارج السودان بإنكار هذه المهدية .

ويبدو أن صاحب الدعوة قد توطدت فى نفسه الثقة برسالته مما عاينه حوله من دلائل الإيمان به وانتظار الفلاح على يده ، فأكثر من كتابة الكتب إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى تصديقه وينذرهم عاقبة الكفر به ، وأشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحرم الذهاب إلى الحج وأقنعهم بكفاية الحج إلى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته قوله فى منشور عام : « ... أخبرنى سيد الوجود ﷺ بأن الله جعل لى على المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله ... هذا وقد أخبرنى سيد الوجود ﷺ ثلاث مرات ، وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدية فقد أخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حالة الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل أقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر فيما أمر به والنهى عما نهى عنه .. » . « وليكن فى معلومكم أنى نسل رسول الله ﷺ ، فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ... والعلم لله إن لى نسبة إلى الحسين ! .. » .

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته:« ... إن النبى ﷺ اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لى وهو منى وأنا منه فأطيعوه ما أطعتمونى .. أستغفر الله » .

٣ — القاديانى :

كان من أسباب ذيوع الأخبار عن مهدى السودان فى البلاد الأسيوية ، ولا سيما الهند والصين ، أنه هزم القائدين هكس وجوردون ، وكان أولهما من قواد الجيش الإنجليزى الذين اشتركوا فى قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧وثانيهما من الضباط الدوليين الذين اشتركوا فى تدريب الجيش الصينى على النظام الحديث وقمع الثورة على حكومة بكين .

فلما قتل هكس وجوردون فى حروبهما مع مهدى السودان طارت الأنباء بوقائعه إلى كل مكان ، وخشيت الحكومة البريطانية عاقبة الإيمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة فى الهند فكان هذا على الأرجح باعثاً من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية عسى أن يكون الإيمان بصاحبها ميرزا غلام أحمد صارفاً للقوم عن تصديق السودانى

ومعززاً للعقائد الحديثة التى كان يبثها بين أتباعه وقوامها إسقاط فريضة الجهاد بالسيف وإيجاب الجهاد بالإقناع والبرهان .

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان من أسرة عريقة آلت بها الحال إلى الخمول والفاقة بعد الثروة ، فتعلم فى مكتب القرية وعمل فى وظيفة حكومية صغيرة ، وشب وهو يسمع الأقاويل عن كرامات أبيه ومنها أنه كان يعرف المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه . وقد سمى أبناءه جميعاً بأسماء النبى وألقاب الأمراء ، فمنهم سلطان أحمد ومحمود وبشير أحمد وولى الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى بعدة أسماء من أسماء نساء آل البيت .

نشأ الغلام منقبضاً عن الناس جانحاً إلى العزلة ومطالعة الأسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الأديان الأخرى . وقد لقى فى سياحته من أنبأه بموافقة أحواله وأحوال زمنه لعلامات المهدى المنتظر،وجعل من هذه العلامات خسوف القمر وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علاماته على الكتب الإسلامية بل ذكر منها ما جاء فى الاصحاح الحادى والأربعين من سفر أشعيا . وفى « الجاماسبى » من كتب المجوس ، فلما حدث الخسوف والكسوف فى شهر رمضان (سنة ١٨٩٤ ميلادية) كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهاناً من الله على أنه هو صاحب الزمان الموعود .

وقد زعم أنه المسيح المنتظر وألف كتاباً سماه « البراهين الأحمدية » على حقية كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية ، وفسر ظهر المسحاء الذين يظهرون بعد الإسلام بأنهم هم الأولياء ورثة الأنبياء ، وقال إنه محدث . ولم يثبت أنه ادعى النبوة إنما دعواه — على قول الأكثرين من أتباعه — إنه مجدد القرن الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء فى باب إزالة الأوهام : « لا أدعى النبوة وما أنا إلا محدث » ، وقال فى منشور ابريل سنة ١٨٩٧ : « لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد » .

ومدار الرسالة القاديانية كلهاعلى التوفيق بين الأديان وتدعيم السلام بين الأمم ، وفى كلام القاديانى ما يشبه القول بالحلول فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفى سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه إلى فريقين : فريق يسمى الأحمدية وهم الذين يؤمنون بإمامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى القاديانية وهم القائلون بنبوته وحجتهم التى يقابلون بها عقيدة

الإسلام فى ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التى وردت فى القرآن الكريم إنما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة ... وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبثين بقراءة حفص عن طريق عاصم ، ولكن الفرقة الأخرى تورد من كلامه ما يبطل دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه فى حقيقة الوحى ونصه بالعربية « ... وما عنى الله من نبوتى إلا كثرة المكالمة والمخاطبة ، ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو حسب نفسه شيئا أو أخرج عنقه من الربقة النبوية ، وأن رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقى بعده إلا كثرة المكالمة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة ... » .

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت أقرب الفرقتين إلى هوى الدولة البريطانية ، لأنها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط الطاعة لها على من يدخلون فى زمرتها ، وقد كتب أحدهم فى كتاب فارسى باسم « تحفة شاه زاده ويلز » يقول فيه وهو يدعو ولى العهد إلى الإسلام : « إن هذه التحفة تقدم إليك من الجماعة التى صبرت على مصاعب شتى ثلاثين سنة أو أكثر على أيدى أعدائها وذويها من جراء ولائها لجدتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الإمبراطور السابق إدوارد السابع ثم والدك الجليل الإمبراطور الحالى ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية وما زال منهج هذه الجماعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنكب عن جميع أنواع الفتنة والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضع شرطاً من شروط المبايعة التى لا تسمح لأحد أن ينضم إليها إلا على عهد العمل بها ، وهو أن تطاع الحكومة القائمة » .

ويعتذر أصحاب هذه السياسة برعاية الضرورة والتوسل بسلطان الدولة إلى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من أتباع القاديانى أنفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعاة إلى نصرة الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسى أثره الأكبر فى تفرق أتباع الطائفة إلى أكثر من فرقتين ، على كونهم جميعاً لا يزيدون على مائة ألف أو نحوها ، ولهم مع هذا التفرق إيمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها فى العالم بمختلف اللغات .

تعقيب

أولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية فى عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم فى بلادهم من دواعي الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذى توارثوه من أسلافهم والتربية التى هيأت أفكارهم وعقائدهم فهم أبناء ماضيهم وحاضرهم فى مواضع الشبه بينهم ومواضع الخلاف ، ولا يلوح لهم فى الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الإسلام غير ما انتهوا إليه .

ونحن كلما أمعنا فى استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من أحوال زمانهم ، بدا لنا أن التاريخ يظلمهم إذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فإنهم على الأغلب الأعم من ظواهرهم مسوقون إلى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا إليها وهم مؤمنون بها ثم دار بهم دولاب الحوادث دورته التى لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه وأصبح الرجوع عن الدعوة بعد ذلك أخطر عليهم وعلى أتباعهم من المضى فيها .

يفيض العصر الذى ينشأون فيه بحوافز الترقب والأمل واليقين بالتغيير الذى لا محيص منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم فى الصورة التى يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم .

وبين هذه الهواجس والقلاقل تنمو النفوس القلقة المتشوقة ، فيتفق حتماً لزاماً أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على استصلاح خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه ، فيخطر له أنه مندوب لأمر جسام يروقه أن يصبح أهلاً له ويخيفه أن يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفاً من تبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن الخاطر منه وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد ، عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد ويجلو له حقيقة الأمر الذى هو فى ريب منه . وإذا احتجبت عنه آيات الإلهام فترة فليس بالعجيب فى هذه الحالة بين الأمل والخوف أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث بها ويستصعب إهمالها ، وما أسرع النفس إلى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أمثال هذه المآزق والأزمات .

ثم يخطو الخطوة الأولى فلا يعدم من يخطوها ويسبقه إلى ما بعدها ، ثم تدفعه المصادفات تارة وتصده تارة حتى يتوسط الطريق وتنسد وراءه شيئا فشيئا منافذ الرجوع ، إن فكر فى الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى إليه أمرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى إليها ، فإن خامره شك فلعله يحسب فى هذه المرحلة أن المصلحة فى التقدم أكبر وأضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه إنما يريد الخير ولا يحاسبه الله إلا بما نواه .

على أن العبرة من هذه الحركات جميعاً أن ضجتها أعظم جداً من جدواها وأنها تجشم الأمم كثيرًا ولا تنفعها ببعض ما تتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنجلى الغاشية وقد حبطت الحركة فى أول أغراضها وأضافت نحلة جديدة إلى النحل التى أرادت أن تمحوها وتدمجها فى كيانها ، وقد تتشعب الحركة شعباً شتى بين أتباعها ومريديها وهى لم تتحرك أول الأمر إلا على أمل التوفيق بين النحل التى تنازعت ضمائر الناس قبلها .

ولو وضعت كل هذه الدعوات فى الميزان لرجحت عليها جميعاً دعوة التعليم والتقويم وهى أقلها ضجة وأطولها أمداً وأبقاها ثمرة .. ففى كل ما أجملناه من الدعوات ونهضات الإصلاح لم ينتفع الإسلام بمنفعة محققة أثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المكين . ولم يخدم الإسلام أحد فى العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم فى النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من أصحاب الطرق المخلصين .

وخير خدمة للإسلام تجلت لنا فى ضوء تجاربه من مطلع القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين هى الخدمة التى تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولا يتخلف عن عصره فى علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، أو هى خدمة التوفيق بين الدين وعلوم التقدم ، وغاية ما نلاحظ على أساليب التوفيق أننا لا نستصوب التعجل بتفسير الكتاب على الوجوه التى تتراءى لأول وهلة من نظريات العلم وفروض العلماء المحدثين ، لأن النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى فى كل حقبة على غير صورتها فى الحقبة التى تسبقها أو التى تليها ومثال ذلك تفسير السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، وقد ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنوات أن السيارات والنجيمات عشر ولا حصر للشهب الصغار التى تشرق وتغرب فى هذا المدار .

وعبرة الدعوات جميعاً منذ أواسط القرن التاسع عشر أنها تنحصر فى كلمتين قال بهما رائد الهند وإمام مصر ، وهما العلم والإيمان .

الدعوات ونهضات الإصلاح
فى منتصف القرن العشرين

تتعدد المقاييس التى يقاس بها تقدم الأمم ، ويأتى فى طليعتها مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية .

وبهذه المقاييس جميعاً تبدو دلائل التقدم على الأمم الإسلامية عند المقابلة بين ما كانت عليه فى منتصف القرن التاسع عشر وما صارت إليه فى أواسط القرن العشرين ، وتبدو هذه الدلائل كذلك بارزة بينة عند المقارنة بين ما هى عليه الآن وبين ما كانت عليه فى أوائل القرن منذ خمسين سنة .

فالمسلمون الذين يعيشون فى بلاد مستقلة أو شبيهة بالمستقلة ، يزيدون على خمسة أضعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم دولة أجنبية .

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعى أو الشكلى فمن الغباء أن يقال إن الاستقلال كعدم الاستقلال كائناً ما كان ، ومن الحذلقة أن يستشهد على ذلك بخضوع الأمم المستقلة كثيراً أو قليلا لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطرار .

فالصبى القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد لا يفعل كل ما يريد ولا يزال فى حياته الراشدة خاضعاً لذوى السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطرار . ولكن لا يقال – من أجل هذا – إن الصبى والرجل الراشد سواء لأنهما ، كليهما ، لا يعملان كل ما يريدان .

وقد خرج معظم الأمم الإسلامية من ربقة السيادة الأجنبية وأصبحت لها مشيئة إلى جانب مشيئة الأقوياء . أو أصبح الأقوياء مضطرين إلى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين ، وهذه خطوة فى الطريق لابد منها قبل ما يليها من الخطوات .

أما الأمم التى لا تزال خاضعة للسيطرة الأجنبية ففى كل منها نهضة قومية ووعى متيقظ يقلق المسيطرين عليها . وتنبئنا حوادث الماضى القريب أن السيطرة ترجع إلى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة بعد المسير ولو إلى غير شوط بعيد .

* * *

فى آسيا ظفرت أندونيسية باستقلالها ولا تزال أمامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الأمية وحاجة الأمة إلى الخبراء الكثيرين فى الإدارة وتدبير الثروة وانفصال بعض أجزائها وتنازع الآراء والأحزاب على سياستها .

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسى ولا تزال أمامها مشاكلها الكثيرة ومنها تباعد شطريها وحاجتها إلى موارد الماء فى كشمير ، وخلافها مع الهند ومع الأفغان .

وفى الصين عشرات الملايين من المسلمين متيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم أوطانهم ، وتقوم الأفغان وإيران مستقلتين إلى جانب هذه الأمم وفى كل منها كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة .

ولا خطر من جميع هذه المشكلات .

ولن يجىء اليوم الذى تستريح فيه الأمم من أمثال هذه المشكلات أو تعيش فى حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة أو صغيرة .

إنما الخطر الأكبر أمة بغير إيمان وبغير معرفة ، فإذا بقى للأمة إيمانها ومعرفتها فكل ما أصابها بعد ذلك هين مأمون العاقبة بعد حين .

وليس الخطر كله من الأعداء ، وليس الأمان كله من الأصدقاء أو الأبناء .

فقد يجىء الخطر على الإيمان من غلاة التجديد ، وقد يجىء الخطر على المعرفة من غلاة الجمود ، قد يتقابل هؤلاء وهؤلاء على قوة واحدة فيسرى إلى الأمة شلل لا تنفع معه معرفة ولا إيمان .

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجسام التى تستقبلها الأمم الإسلامية أنها لا تحمل العبء كله ولا تنفرد بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لأن سنن الحوادث أن تأتى بالنجدة كما تأتى بالعقبة ، وأن العامل لا ييأس من مفاجآت الغيب وإن كان لا يأمن الغدرات من تلك المفاجآت .

لقد كان على أندونيسية شوط بعيد مع هولندة وشبكة الاستعمار التى تمكن لها فى مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندة باليابان فأخرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهة وتركت سلاحها للثوار فى سبيل الحرية ، ثم اضطر المتنصرون من الأمريكيين

والانجليز إلى مداره الشعوب الأسيوية ونفس بعضهم على بعض أن تخلف هولندة على تلك الغنيمة الضخمة ، فإذا بالاستقلال يسعى إلى أندونيسية كما سعت إليه ، ثم تبقى الكفاية لمشكلات الحكم والمعيشة وهى لا تعضل قوماً كأبناء تلك الأمة كادوا أن يستأثروا بالتجارة والملاحة فى بحار الهند قبل زحف المستعمرين عليها .

وكان على الباكستان شوط بعيد مع الدولة البريطانية والكثرة البرهمية ، ثم تغير الموقف فى القارة الأسيوية بعد هزيمة اليابان وبعد كساد التجارة البريطانية فى المشرق وبعد التزاحم الجديد بين الروسيين والأمريكيين على القارة فى شرقها الأقصى ، فإذا بالاستقلال يسعى إلى الباكستان كما سعت إليه ثم تبقى كشمير وتبقى بإزائها صناعة فى الهند تتوقف على الباكستان وصناعة فى الباكستان تتوقف على الهند ، ومصلحة مشتركة تلجئ الجانبين إلى المصالحة ، وخطر من جانب الصين الشيوعية يفتح الأعين هنا وهناك .

وثمة عامل جديد فى سياسة الدول القوية لم يكن له خطر قبل منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة فى المجتمع .

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالى شيئاً بعد غلبتها العسكرية والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة . ولكنها اليوم تبالى ما يعتقده الشعب وتعلم أن هذه العقيدة عامل هام فى الترجيح بين المستعمرين من كتلة المشرق وكتلة المغرب .. وقد تعودوا المبالاة بالإسلام ما تحتويه عقيدته من المقاومة أو المسالمة للمذاهب الاجتماعية ، فليست السطوة بقوة السياسة أو بقوة السلاح هى كل ما تباليه الدول الكبرى فى منازعاتها، وقد يخافون من هذه السطوة أن تدفع بالمسلمين إلى جانب وتصرفهم عن جانب ، فيبنون علاقاتهم بهم على هذا الأساس .

والفرق بين الكتلتين أن الأمريكيين والإنجليز لا يستطيعون أن يجعلوا الأمة المسلمة أمريكية أو إنجليزية . أما الكتلة الشرقية فإذا جعلت أمة من الأمم شيوعية لم تكترث بعد ذلك بجنسها وعقيدتها ، لأن الشيوعية تبطل الأوطان والأديان .

* * *

وفى آسيا دولتان قديمتان هما إيران وتركية ، وكلتاهما فى شقة الصدام بين الكتلتين يحميهما هذا الصدام أن تقعا فى قبضة هذه أو تلك ، ولكنها حماية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلابد من سند لها فى بنية الأمة،ولابد من قيام هذا السند من الإيمان والمعرفة .

ويقال اليوم إن تركية تعود إلى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على تقاليدها الدينية ، ولكن تركية فى الواقع لم تفارق الدين حتى يقال إنها تعود إليه ، وكل ما حدث إنما هو تغيير فى مراسم الحكم لم يتغلغل قط إلى ضمير الأمة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليد الجامدين أصلح لتركية من أيام الخلافة المتداعية وأيام الثورة الكمالية الأولى .

أما الأمم العربية فقد وضع لها الغرب إسفينًا فى صميم بنيتها يوم أقيمت بينها دولة اسرائيل ، ولن تؤمن العقبى ما بقى فيما بينها هذا الصدع الوبيل وتتسلل منه المفاسد والمطامع إلى جوفها .

ولكن إسرائيل على قوة الدول التى تسندها لا تعيش ولا تتمكن فى موضعها بين أمم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ، وباب الأمل فى هذا الجانب أن المصير لا يعدو حالة من حالتين : أما أن تسيطر إسرائيل على أمم العرب ونهضتها ، وإما أن تتخذل دون هذا المطلب العصى فتنهار أو تقبع فى أضيق حدودها ، وأصعب هاتين الحالتين سيطرة اسرائيل على أمم ناهضة تتقدم ولا تنكص على أعقابها .

* * *

والإسلام فى القارة الإفريقية يشغل شواطئها على البحرين الأبيض والأحمر وعلى المحيطين الأطلسى والهندى . فكل الشواطئ الإفريقية يقطنها مسلمون ما خلا الجانب الغربى إلى الجنوب ، ويتخللها المسلمون فى جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها فى أواسطها من السودان إلى أعالى النيل .

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الأفريقية فى الوقت الحاضر ، فعلى الإسلام عبء كبير ينهض به فى وجه هذا الاستعمار .

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة فى هذه القارة فليس السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل من يقدر على البقاء بعد طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لا يقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون ويزول أبناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجوا أبناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم فى غمارهم إفريقيين « متغربين » .

وقد تطول المسافة على الشعوب الإفريقية قبل بلوغ المرحلة التى تخرج الاستعمار ،

ولكن الاستعمار يحمل من جراثيم الفناء ما يعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى الإفريقيون والمستعمرون فى العلم والثروة والحول والحيلة ، وإنما اللازم أن يضيق المستعمرون بقهر الإفريقيين وقد يضيقون بهم قبل أن يتساوى الفريقان فى هذه الصفات بزمن طويل .

ومصر — فى طليعة الأمم الإفريقية — تمضى قدماً إلى هذه المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين . فلم تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة إلى حالة أفضل منها ، فخرجت من السيادة العثمانية ثم خرجت من الحماية البريطانية ثم تخلصت من الملكية الرثة التى صار بها الزمن إلى أسوأ أطوارها فى عهد فاروق ربيب الفساد ، ابن أحمد فؤاد صنيعة الحماية ، ابن إسماعيل رائد الخراب والاحتلال وإذا اطردت مراحلها عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء فى مرحلتها التى تقود فيها القارة الإفريقية ببعيد .

وعلى شواطئ البحرين الأبيض والأحمر أمم من هذه القارة تتيقظ وتتحفز ويوشك أن تبلغ المرحلة التى تعنت فيها الاستعمار كما عنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادى النيل ، وأياً كان مآل هذه الآمال فى عالم السياسة فمناط الأمر كله أن يتم لها حظ الأمم المستقلة فى المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك مرضى ومقبول .

* * *

فى نظر الغرب

منذ القرن الأول للهجرة لم يعرف العالم حقبة من حقب التاريخ خلا فيها الغرب ممن يهتمون بالإسلام على نحو من الأنحاء ، ولكن الذى يعنينا فى هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالإسلام فى عصر الاستعمار ، وقد كان على الأغلب اهتماماً يروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية ، فلم يهتم الغرب بالإسلام قط من وجهة نظر عامة أو من وجهة نظر علمية فى القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر ، وإنما التفت الغربيون إلى دراسة الإسلام من هذه الوجهة – وجهة النظر العلمية – منذ أوائل القرن العشرين ، وهى مع هذا لا تخلو من غرض وإن تخفى الغرض فيها أحياناً وراء نقاب .

فمن أواخر القرن التاسع عشر إلى اليوم تقوم الجامعات والمعاهد فى هولندة وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة لدراسة أحوال المسلمين وأسرار العقيدة الإسلامية على أضواء العلم الحديث ، وينشىء بعض الجامعات كراسى لهذه الدراسة أو قاعات لإلقاء المحاضرات وانتداب المختصين لإلقاء سلاسل من هذه المحاضرات سواء كانوا من الأساتذة فيها أو ممن يعلمون فى الجامعات الأخرى .

وسنجمل فى هذا الفصل أقوالا متفرقة من مباحث المختصين الذين صوروا الإسلام للغرب كما فهموه ، فإننا إذا عرفنا كيف يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء .

* * *

افتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الإسلامية منذ نحو خمسين سنة (١٩٠٦) فحصر المحاضر الأول – دنكان بلاك مكدونالد – أهم الموضوعات التى يمكن أن يدور عليها البحث فى ثلاثة ، وهى الشخصية المحمدية ، ومدارس التصوف ، وأطوار الأمم الإسلامية فى حركة التجديد .

وصفوة ما انتهى إليه فى هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية المحمدية لا تزال بعد أربعة عشر قرناً مصدر المدد المتصل فى تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفساً للعقيدة الفردية التى يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ

وسلطان الجماهير ، وأن أطوار المسلمين تختلف اختلافاً لابد منه بين أناس ينتمون إلى كل جنس وكل أصل من الأصول البشرية ، ولكن الإسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير فى أتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الدينى والحياة الدينية فى الإسلام »[1] .

ومن الدارسين لموقف الإسلام فى القرن العشرين المؤرخ الكبير أرنولد توينبى Toynbee فى محاضراته عن « العالم والغرب » التى ألقيت سنة ١٩٥٢ وفى محاضرات أخرى عن حركة التجديد التى سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة التى سماها بالآسية . .

وعند توينبى أن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الاسرائيلى حضارة رومة واليونان قبل ألفى سنة ، ولا يعنى بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعنى به أن من المسلمين من يقاوم الحضارة الأوربية بالاقتباس منها كما فعل هيرود فى عصر السيد المسيح، ومنهم من يقاومها بالمحافظة الشديدة والإصرار على القديم بنصه وحرفه .

وقد ذكر الانقلاب التركى وما تلاه من الحركة الكمالية نحو الغرب ، فقال إن التجديد التركى قد تطور هذا التطور لأن التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على أثر الهزائم المتوالية التى منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ العسكرى بعد الهزيمة الأخيرة فى الحرب العالمية الأولى . ثم قال ما فحواه أن النظام العسكرى قد اقترن بالنظام النيابى الذى علقت جذوره على ما يظهر بالتربة الإسلامية ، وفضل العقلية الإسلامية على العقلية الأوربية فى أخوة الدين . فإنها فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات قمينة أن تحشد الإسلام صفاً واحداً أمام غزوات الشيوعيين ، وقد نوه بالرسالة التى تؤديها اللغة العربية فى هذا الموقف وهى لغة الكتابة على اختلاف اللهجات بين مراكش وإيران ومسقط وزنجبار .

* * *

وصنف الأستاذ جب Gibb أستاذ العربية بجامعة أكسفورد عدة رسائل تدور بالتفصيل أو بالإجمال على هذا الموضوع .

---

(١) The Riligious Attitude and life in Islam. By Macdonald.

وملاحظته الأولى هى أن التجديد فى الإسلام يبدأ من جانب « العلمانيين » أو الدنيويين خلافاً لتجديد الغرب الذى يتولاه رجال الدين ، وأن المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الإمام محمد عبده لتسويغ جهودهم التى لا يرضى عنها الجامدون كلما حاولوا حاولوا التقريب بين الإسلام والحضارة الحديثة وتعليل ذلك عنده أن المسلم المتعلم على المنهاج الأوربى هو الذى يعرف ما يستفاد من علوم الغرب وحضارته ، وهو منهاج لم يفتح أمام الشيوخ قبل الجيل الجديد .

ويرى الأستاذ جب أن التجديد ينتشر فى العواصم وقلما يسرى إلى الأقاليم النائية فى جوف البلاد .

ويلاحظ أن المجددين فى مصر قد يتأولون الأحاديث النبوية ولكنهم لا يجترئون كما اجترأ بعض مجددى الهند على المناقشة فى التنزيل ولا سيما المناقشة حول تنزيل القرآن بلفظه أو بمعناه ، ولم يعلل الأستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له أمثلة كثيرة فى الهند أو غيرها ، ولكننا نظن أن خاطر التنزيل بالمعنى إنما يخطر لمن يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو يترجموا هذا المعنى مع قراءته بالحروف العربية ، وقليل جداً مع هذا من يعلق التجديد بهذا الضرب من التأويل .

* * *

وممن ألفوا عن الإسلام فى الهند خاصة الأستاذ ولفرد كانتويل سميث Welfred cantwell Smith مدرس التاريخ الإسلامى بجامعة عليجرة .

وأهم ما لاحظه أن دعاة التجديد يهتمون بإثبات « قابلية الإسلام » للتحضر والتمدين ، ويشيدون بفضله على حضارة الغرب من عهد دخوله الأندلس إلى عهد الحروب الصليبية ، وأن بعض المجتهدين — وسمى منهم أبا العلاء المودودى — يؤمنون بأن الإسلام نظام الكون ، وأن العالم العلوى يمشى على نظامه فيصح أن يقال عن الشمس والقمر والكواكب أنها كائنات مسلمة ، بل يصح أن يقال عن تكوين الملحد نفسه إنه فى « كيانه الجسدى » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمة أحكام الإسلام .

وينزع الأستاذ سميث إلى التفسيرات الاقتصادية فى عقائد الطبقات ، فيقول إن « الشخصية النبوية » هى مدار العقيدة حيث يلتمس المسلم فى العصر الحاضر « مثلا أعلى » لمسلكه وأدبه وقواعد خلقه ، وإن المساس بالنبى عليه السلام يثير المسلم أشد من ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يقصد بذلك أن مقام النبوة أعظم عنده من مقام

الإله فهذا ممتنع كل الامتناع فى الإسلام ولكنه قد تعود أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الإله ولم يتعود أن يواجهه أحد بالقدح فى نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه ، وهذه الحركة الواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السيرة » وأصبح قوامها الإعجاب والاقتداء بسيرة النبى فى حياته الخاصة والعامة ، وهنا يستطرد الأستاذ إلى تعليلاته الاقتصادية فيقول إن الطبقة الوسطى فى جميع الأمم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ومن ثم اتجه الشعور الدينى عند المتعلمين – ومعظمهم من الطبقة الوسطى – إلى « شخصية » تملك إعجابهم وتقنع المتدين بجدارتها للقدوة والأمانة فكانت « الشخصية المحمدية » هى مدار هذا الشعور وقبله هذا التفكير .

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء الغربية عن الإسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج إلى إسهاب فى التعقيب عليه لأن الاهتمام بذوات الأولياء والقديسين يشيع فى كل أمة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين الميسورين المتوسطين ممن يسميهم أصحاب التفسير الاقتصادى بالبرجوازيين . ونرى أن تعظيم النبى عام بين المسلمين فى هذا العصر ، وأن كتابة السيرة المحمدية عامة كذلك بينهم فى كل أمة ، فلا عجب أن تعم البلاد التى كان للشخصية الإنسانية فيها مكانة بارزة فى كل عقيدة من أقدم العصور ، وهذا عدا ما هو مأثور من طبيعة الإنسان إذ تدرك القداسة متمثلة فى صورة واضحة قبل أن تتمثلها فى عالم التجريد .

* * *

وبين أحدث الكتب عن الإسلام كتاب الأستاذ تريتون Tritton أستاذ الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن ، وقد اختار للمسلم المعاصر مثالين أحدهما هندى وهو الشاعر الصوفى محمد إقبال ، والآخر مصرى وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهو يحاول أن ينفذ إلى طبيعة إدراك الماضى والحاضر والقديم والجديد فى ذهن إقبال فيقول إن الزمن المطلق عنده كلٌ عضوى شامل لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل فى حاضرنا ثم يقول إن الإسلام يعطى كلا من العالمين – الدنيا والآخرة – حقهما ، وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى ، وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح لا يزال .

قال : وقد أدى ضغط الآراء الغربية إلى تغيير واحد فى التفكير الإسلامى ، فإن المسلمين فى القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد التفكير الأخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجوه الاعتراض التى تأتى من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الإنسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى أرفع تعبيراتها فى شريعة الإسلام وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم ليست على ما يحبون وأن الإصلاح ضرورة لا محيص عنها ولكنهم يصرون على أن الإسلام دون غيره هو الذى يصلح لمطالب النوع الإنسانى ، فقد تغيرت الأحوال ووجب أن تتغير معها النظرة إلى الديانة . وقد كان أثر الغزالى فى الشيخ محمد عبده قوياً يبدو واضحاً فى فهم الدين على أنه عقيدة باطنة حيوية من شئون السريرة ، وأن الشعائر الخارجية ثانوية مضافة إليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم تلاميذ الشيخ تنقاد لمذهب الحنابلة فتجمعت من ذلك دعوة إلى رفض البدع المستحدثة والعود إلى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت هذه الدعوة برامج إصلاح فى الشئون الدينية والاجتماعية والاقتصادية تثبت قابلية الإسلام للتدين به فى الأحوال الحاضرة .. وهؤلاء التلاميذ يتجهون إلى أهداف مختلفة بعضها وطنى قومى وبعضها مدرسى ينظر إلى الحرية العقلية ، وبعضها يقدم الإصلاح الدينى ويعتبره مبدأ لكل إصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للنزعة الحنبلية محافظاً فى بعض الأمور أشد من المحافظين ، وتنفصل الصبغة الغزالية عن حياتهم .. وإنهم ليعتقدون أنهم معتدلون يتوسطون بين البساطة التى ترجع بقوتها كلها إلى التسليم الأعمى فى طوائف الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يجنحون إلى الحرية العقلية المطلقة والاتجاه إلى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث والشريعة الوضعية ، ويؤكدون أن الإسلام إذا فسر كما يفسرونه يتكفل بالحل الوحيد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين .. » .

وانتقل تريتون إلى مسألة الخلافة فقال : « إن إلغاء الترك للخلافة صدم العالم الإسلامى وإن كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد اسماً على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ، ومنهم من يؤثر إيجاد الخلافة بأية صبغة روحية خادمة للشريعة لا حاكمة مسيطرة عليها ، وإنما وظيفة الخليفة أن يراقب القيام بحكم الشرع ولا يستطاع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى إلى أن يكون كالإمام عند الشيعة ، إلا أنه لم توجد قط ولا توجد الآن أداة معترف بها تتولى اختياره ، وأقرب ما يكون إلى هذه الأداة فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لا يعينون بل يرتقون إلى مكانتهم بالمعرفة ووجاهة الشخصية كأنهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة . ويعتبر

الوطنيون الذين يعتقدون أن خلاص الإسلام مرهون بإقامة الحكومات المستقلة أناساً من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة قد وجدت قديماً دون أن تفصم وحدة الجماعة وليس ما يمنع أن يعود الأمر كما بدأ ويومئذ يصدق على عالم السياسة ما روى عن النبى حيث يقول : إن الاختلاف بين أمتى رحمة » .

« .. وربما تأثر المسلمون بإجلال النصارى للمسيح فرفعوا مقام النبى إلى أوج المثل الأعلى وجعلوا التدين محاكاة له فى سيرته ، ولم تزل نظرة المسلمين إلى نبى الإسلام تتنوع من حقبة إلى أخرى . ولكن النبى نفسه كان يقول إنه إنما هو رسول وإنسان من البشر وليس فى يديه أن يصنع المعجزات » .

وختم تريتون هذا الفصل قائلاإن الفجوة بين مدرسة التجديد ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التى دعا إليها محمد إقبال ، وكلتاهما مع هذا قد تثوب إلى القرآن الذى يوحى إلى المدرستين أن الله ليس كمثله شيء وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

* * *

واشترك نحو عشرة من الباحثين الغربيين والشرقيين فى دراسات متفرقة عن الثقافة والمجتمع فى أمم الشرق الأدنى Near Eastern Culture and Society فقال أحدهم الأستاذ عبد الخالق عدنان أديوار — وهو تركى — إن حركة التجديد العصرية بدأت بدعوة ضيا شوق آلب المسماة بحركة « ينى مجموعة » أو الجماعة الجديدة ، وغايتها أن تنشىء فى الإسلام توفيقاً كالتوفيق بين المسيحية والحضارة العصرية على مبادىء اللوثرية ، ولكن غلطة شوق آلب كانت على الأغلب غلطة لغوية فى الترجمة ، إذ كان من سوء حظه أنه ترجم كلمة الدنيوى أو العلمانى Laic باللاديني فنفر المحافظون من مذهبه على اعتباره زندقة مناقضة للدين ، فى حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل تعنى « غير الكهنوتية » .. ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها المسلمون لأنهم يسلمون أن دياناتهم خلو من سلطان الكهنوت ، ثم جاء الاندفاع فى سبيل « التغرب » فبلغ من سورته حداً أخرجه من الدعوة الفكرية إلى حالة تشبه الحتمية الحكومية فى سبيل « اللادينية » وانقلبت الآية من تعصب قديم إلى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص وحرية المناقشة .

ولخص حبيب أمين الكورانى حركات التجديد فى ثلاث دعوات كبرى هى دعوة

جمال الدين المنادى بالجامعة الإسلامية على أساس التقريب بين الإسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة إلى السلف الأول ودعوة الشيخ محمد عبده على أساس العمل بمقتضيات العصر كما يسوغها التفسير الحديث لأحكام الإسلام .

وتكلم كويلر يونغ Cuyler Young عن ثورة السخط فى إيران على المادية والاباحية وعزاهما إلى سوء المعيشة الدنيوية لا إلى سوء العقيدة الدينية ، وقال إن تحسين المعيشة ونشر التعليم خير علاج للمشكلة النفسية مع تذليل صعوبة اللغة المختلفة بين الأقاليم .

ومن الكتب التى درست الإسلام دراسة علمية على اتصال بمساعى المبشرين كتاب «قنطرة إلى الإسلام» Bridge to Islam لصاحبه إريخ بتمان Erich Bethmann وكتاب «طوالع الإسلام» The prospects of Islam لصاحبه لورنس براون Laurence Browne .

أما الأول فيصرح بإخفاق التبشير وينعى على الحضارة الغربية أنها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشتد فى نقد الروايات السيمية لأنها أدخلت فى روع المسلم الشرقى أنها تمثل حياة الأمم المسيحية فنظروا إليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا إليها نظرة طالب الإصلاح .

وكأنما خشى من أنصار التبشير إعراضاً عن المعونة فلام الذين ينصحون بالتحبب إلى الشرق من طريق التعليم والإحسان والتطبيب ، وقال إن الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الثيولوجى » فهو لا يفهم الإصلاح على غير هذه القاعدة وما لم يكن هنالك حافز دينى فالأمر عنده من الشواغل العرضية التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل ... وإنه لرأى فى الحق جد عجيب ، لأنه الرأى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع أنصار التبشير بضياع المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما اشتمل عليه .

وأما لورنس براون فمحاولته كلها متجهة إلى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين » .. وهو لا ينكر أن المسلمين الذين يصبأون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى أن المسألة هنا مسألة الطبقة لا مسألة العقيدة وأن أبناء الطبقات الميسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع الملل والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطمع فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات . ولكن المطمع كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، كما ظهر فى رأيه بين المتنصرين الهنود الذين يرجح انتماؤهم فى الأصل إلى أجداد كانوا يدينون بنحلة من نحل الإسلام .

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الإسلام والغرب ثم ترجم إلى العربية باسم الإسلام فى نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور إسحق موسى الحسينى من فلسطين .

يقول الأستاذ « فيليب حتى » إن الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر فى المسائل الفنية والعلمية ويتعسر فى مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الاقتصادية ، ويقول إن المتفرنجين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا ما فى داخل الرأس بمجرد لبس القبعة وخلع الطربوش ويختم كلمته قائلا إن الدول العربية ليست جزءاً من آسيا .. وعلى الغرب أن يقنع تلك الدول التى ترغب فى توطيد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب إلى تلك الثقافة ... أى إلى الثقافة الغربية ! .

ويسهب الدكتور بايرد دودج المدير السابق للجامعة الأمريكية فى إيراد الأمثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة بين الإسلام والعلم الحديث ؛ ومن مسائل العلم الحديث التى أشار إليها مسألة التطور والجرائم ومسائل الاقتصاد التى تتناول المعاملة بالربا وما إليها ، ولكنه يقول إن الناشئة تنبذ فرائض دينها « ويلوح لى أن هوليوود قد أثرت فى الجيل الحاضر من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية » .

ثم يقول : « واليوم قد أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصراً قوياً فى الفكر الإسلامى والمجتمع ، وهذا يؤدى بالطبع إلى مناهضة فكرة الوحدة الإسلامية أو الخلافة وكون الإسلام أخوة منظمة – فالقومية قد حلت محل المظهر الدينى للوحدة الإسلامية إلى حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان المسلمين الذين لا يبالون بالإسلام باعتباره نظاماً عظيماً هم الذين يغلب عليهم اعتناق الشيوعية ... » .

وزبدة كل هذه الآراء ، ما كان منها لمحض العلم أو ما كان منها منظوراً فيه إلى التبشير والسياسة ، أن الغربى مشغول بأمر الإسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه وأهم ما يهمه أن يعلم كيف يقف الإسلام غداً من مجاميع الأمم الغربية والشرقية ، وكيف يكون مسلكه إذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذلك .

ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب ، نظرة أو نظرات مثلها من جانب المجموعة الأممية التى تسمى بالكتلة الشرقية ، وتدل نظراتها جميعاً على تناقض غير مطرد

فى وجهته . فيرحبون حيناً بنشاط القوميات لأنها تفرق بين المسلمين فى البقاع المتقاربة ويرحبون حيناً آخر بنشاط الوحدة الإسلامية لأنهم يخشون العصبية القومية ولا ييأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم الاجتماعية .

وإذا صرفنا النظر عن « اهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى يبعث إليه حب المعرفة وحب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه السياسات وتقرير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمام شامل لجماهير الأقوام غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ، وإحدى ظواهر هذا الاهتمام شيوع الطبعات الشعبية من ترجمة القرآن الكريم ، وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجل من رجال الدين وهو يقدم المختارات من آى القرآن إنه إذا لم يكن كتاباً فهو صوت قوى حى A strony Living Voice وهو غاية ما ينتظر ممن ينكر الكتاب[١] .

---

(١) Sacred Books of the world by Bouquet.

آسيا وافريقيا

وكل بحث فى مستقبل المسلمين يستتبع البحث فى مستقبل القارتين آسيا وإفريقية على الخصوص ، لأن تسعة أعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير .

وجملة ما يقال فى آسيا إن شعوبها أضخم من أن تبتلع فى بنية شعب آخر وجملة ما يقال فى إفريقية إنها أبعد أصلا من أن تندمج فى الغرب وهى قائمة على تربتها .

إنما ينظر فى هذه وتلك إلى عاقبة السيطرة الثقافية ، ولا نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فإن الأمم التى تتقدم فى العلم الحديث لا تقع تحت السيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تتغلب بعلمها على السيطرة الأجنبية إن كانت واقعة فى قبضتها .

وإنما نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العقيدة من جانب المذاهب الاجتماعية أومن جانب التبشير .

إن الدول الكبرى التى تتجاذب سياسة العالم هى الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا الشيوعية .

والظاهر من سياسة بريطانيا فى القرن العشرين أن تتراجع عن آسيا ، وعن الشرق الأقصى خاصة ، وتترك ميدان السباق فيه للروس والأمريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث فى آسيا الغربية ، أى فى بلاد العرب التى تمتد من العراق إلى البحر الأبيض والأحمر .

أما السيطرة الروسية فهى تقوم على نشر الشيوعية . وهى مذهب لا يوافق الإسلام فى أساسه ولكن الإسلام يغنى عنه إذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والإنصاف وعملوا بأصول دينهم فى التوسط بين التهالك على الدنيا والإعراض عنها ، وينبغى أن نذكر فى هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هى قطعة من أوروبة أخذتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحدث فى المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للإسلام شأن كبير فى هذا التكرار .

وتتسابق الدولتان الروسية والأمريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام

فى هذه القارة الواسعة ، ومآل ذلك حتماً إلى أبناء البلاد لأن حبل الزمن أطول من حبل المال وحبال السياسة . وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الأمة وقوامها ، وليس فى آسيا قوة روحية أقدر من الإسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التى تؤمن بدينه .

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة ، وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكرى فى حالة الحرب العالمية ، ولكنها لا تهمل حساب التبشير ولا تنكر مسعاه فى حمايتها ، وهذه عبارة فى سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير .

يقول هارولد ستورم فى كتابه « إلى أين جزيرة ياالعرب »[1] :

« إن قبائل الجبال وراء ظفار — وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة — تستخدم لهجات غير عربية كالشحرية والمهرية والبوطهارية والخرسوسية ، وكل لهجة من هذه اللهجات لا يفهمها المتكلمون باللهجات الأخرى ، وقد تمكن العالم اللغوى الألمانى الدكتور مكسمليان بثنر Bethner من رسم اللهجتين الشحرية والمهرية بالكتابة وهما على ما يلوح لى على قرابة من إحدى اللغات الهندية حيث تدل بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند إلى ظفار ولا تزال ثمة عادات قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطررت إلى استخدام مترجم بين هذه القبائل حين عشت فى بلادها ، وتبين لى من صعوبة اللغة أن العمل بينها — أى عمل التبشير — عسير .

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لا محالة رجوعاً إلى العمل الذى تأسس فى مسقط نفسها، ويدعو موقف السلطان الودى فى الوقت الحاضر إلى الأمل فى الانتفاع بهذه الفرصة لإنجاز شيء . إذ تتنقل بعثات التبشير بغير عائق فى عمان ويرجى من تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك فى داخل عمان قبائل لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط فى حمل رسالة الإنجيل إليها على نطاق أوسع مما تيسر قبل الآن فى أى مكان » .

أما القارة الإفريقية فقد أحيطت كذلك بحلقات من الجهات الأربع تسيطر عليها

---

(١) Whither Arabia by Harold Storm
من سلسلة World Dominion Survey Series

البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة من هذه القارة أن تجمع على اعتبارها فى عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » ببريطانيا (العظمى) ، وأحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى فى عنوانه وهو « إفريقية إمبراطورية بريطانيا الثالثة Africa; Britain's Third Empire من تأليف جورج بادمورPadmore .

وقد ظهر باللغة الإنجليزية فى السنوات الأخيرة أكثر من مائة كتاب عن القارة الإفريقية ، وبعض عناوينها ينم على مبلغ الأمل والحذر من هذه الجهة التى أحاط بها الظلام إلى أوائل القرن العشرين .

من عناوين هذه الكتب عنوان « الأمل فى إفريقية » لمؤلفه آلبورت ، وعنوان « إفريقية الغربية الجديدة » لأربعة مؤلفين ، وعنوان « الإفريقى اليوم وغداً » لمؤلفه ديديرنج وسترمان ، وعنوان « قضية الحرية الإفريقية » لمؤلفه جويس كارى ، وعنوان « إفريقية تنهض » لمؤلفه و . م مكميلان ، وعنوان « قارة الغد » لمؤلفيه بطرس بن ولوسى ستريث ... وهكذا وهكذا عشرات من التصانيف الجديدة تتلوها عشرات .

وما من كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الإسلام والتحدث عن سهولة انتشاره بين الشعوب الإفريقية ، ونجتزئ بنماذج من هذه الإشارات للدلالة على السياسة التى قد توحيها معلومات القوم على أثر هذا الدين فى مستقبل الإفريقيين .

يصف وسترمان دين الإسلام وصفاً غريباً يعلل به قابلية الشعوب الفطرية للإصغاء إلى دعوته ، فيقول عنه إنه دين مذكر أو دين ذو رجولة Masculine يعجب الإفريقى ببساطته وقوته ، ثم يقول « إن المسلم لا يهبط إلى مثل هذا الاقتداء الخاضع الذى يهبط إليه الزنجى الوثنى ، فبينما يفخر الزنجى الوثنى إذا أتيح له أن يلف نفسه بخرقة عتيقة يلقيها الأوربى إليه ويعرض نفسه للسخرية بهذه القلوة الهزلية – لا يخطر على بال المسلم أن يستبدل ملابس الأوربيين بردائه الفضفاض وقلنسوته السعفية » .

ويضيف إلى ذلك أن الإسلام متى بدأ فى مكان لم ينتظر مدداً من الخارج للتوسع فى جوار ذلك المكان ، فمعظم التبشير به إفريقى لا يحتاج إلى معونة من غير الإفريقيين .

وقد ألف الأستاذ نادل Nadel النمسوى – أستاذ علم الأجناس البشرية بجامعة النمسا الوطنية – كتاباً مفصلا عن عقيدة النيوب فى بلاد النيجر وأثر الإسلام فيها قال فيه : « إن الإسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الأتباع ولا يدعهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الإيمان التام ولا يكتفى بعلامات الموافقة والمجاراة » .

ويقول البروفسور مكملان فى كتابه « إفريقية تنهض Africa Emergent » « إن الجانب الإسلامى فى بلاد النيجر قد أتى فيه ما يحسب الآن ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ، وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمة قد يكون القليل منها اليوم هو الحقيق بأن ينسى » .

وبديه أن كل اعتراف من هذه الاعترافات يستتبع وراءه خطة الحذر والحيطة للمستقبل ، ولكن المستقبل سيكشف للإفريقيين ولا ريب حيلته فى مقاومة هذه الخطط أو محاذرتها واتقاءها من جانبه .

أما الأمل الذى يتخايل أمام المستعمر البريطانى فى هذه القارة فهو تأليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل مجموعة منها مع المجاميع الأخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح صاحبا كتاب « قارة الغد » برامج هذه الولايات وقالا إن مصلحة الأوربى والإفريقى فيها لا تتعارضان ولا تتناقضان بل تتوازيان وإن إفريقية إما أن تحكم على هذا المثال أو تصير فى نصفها الجنوبى على الأقل وطناً مدمجاً فى الشعوب الشرقية التى تهاجر إليها وأكثرها الهنود ، وقد تطمع الشيوعية فى استخلاصها لها من مصير كهذا أو مصير كذاك .

ويوشك الرأى الغالب على هذه المصنفات أن يتجه إلى غاية واحدة : وهى ادخار إفريقية لتزويد الأمم الغربية بمواد الغذاء وخامات الصناعة ، مع بعض الرجاء فى العثور على المعادن والزيوت فى باطن أرضها ، حيث يتيسر تصنيعها إلى جانب مناجمها .

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له أن ينظر بعينيه جميعاً مفتوحتين إلى الغد الذى لا مهرب منه فى قارة « الغد » كما يسمونها . فمهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو التبشير فلن تكون إفريقية فى النهاية لغير الإفريقيين ، ومن داخلها سيخرج لهم من ينتزع سيادتها من أيديهم ، ومن يناصبهم العداء لأنهم قد استأثروا دونه زمناً بهذه السيادة ، ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه .

الغد

والغد غيب مجهول .

ولا حاجة بنا إلى التنجيم عن حوادثه وصروفه ، فإنه بأية حال لن يخلو من الحوادث والصروف ولن تخلو حوادثه وصروفه من سلم وحرب ونصر وهزيمة ودول تعلو ودول تهبط وعلاقات تتصل وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب إلى عداوة ، وعداوة تنقلب إلى صداقة ، وتكرار على نسق الماضى وبدع جديد كأنه من الماضى المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديد .

إنما نحن آمنون إذا واجهنا الغد المجهول بعدته ، وإنما نحن مستعدون له بخير ما نستطيع إذا خرجنا من الماضى الطويل بعبرته الوافية . وعبرته الوافية أن العقائد أثبت من السياسات وأن الأمم أثبت من الدول ، وأن الجاهل أعدى لأمته من أعدى أعدائها ، وما نكب الإسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار كما نكب من أبنائه الجهلاء .

ولنرجع إلى ألف سنة مضت منذ ابتدأت الحروب الصليبية لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة .

كفى أن نرجع إلى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات . فقد كانت فى أوله دول يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من بقاع المشرق أقصاه وأدناه ، وكانت فيه دول تعتزل العالم القديم وتطلب من العالم القديم أن يعتزلها ، فتغيرت المواقف وتغيرت السياسات وتغيرت العلاقات ، وقاتل الناس فى صفوف ثم قاتلوا فى غير تلك الصفوف ، ولم تتغير معالم الأرض ولكن تغيرت الحدود وتغيرت الدول التى تقوم بين تلك المعالم والحدود فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها .

ومهما تكن الدولة فالأمة هى الباقية .

ومهما يكن الخطر فالجهل فى كل معترك ومع كل خصم أو منازع هو أخطر الأخطار .

وإذا بقى للإسلام إيمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء

اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ، وأخطر من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم مكان الجهل والغباء .

ومثل من أمثلة الجهل والغباء أن يطول اللجاج ويحتدم الهياج على التحريم والتحليل ومحصول ذلك كله أهون من خطر اللجاج وخطر الشقاق والهياج .

إن الجهل الذى يغرى صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين فى الكهرباء بمحالفة الشيطان لهو أخطر على الإسلام من كل حلال وحرام .

ولقد تطول الأقاويل فى حل التماثيل وتحريمها وفيما هو تمثال وليس بصورة أو ما هو صورة وليس بتمثال . ولكن التماثيل والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت بين أبناء الأديان المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين ولم نسمع قط أنهم سجدوا لتمثال بطل عظيم أو تعبدوا لضريح نابغ مشهور ، وليست عقيدة المسلم بأضعف من عقائد الأديان عن مدافعة هذه الأخطار إن خيفت منها الأخطار ، فلا يمتنعن البحث فى الحلال والحرام ولا فى الصحيح والباطل من عقائد المعتقدين ، ولكنه إذا بذل فيه من الجهد فوق حقه ، وأضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الأكبر وذلك هو الجهد العقام ، واحتفاظ المسلم بإيمانه أمام هذه المحرمات أيسر جداً من احتفاظه بالإيمان أمام جاهل يكفر القائلين بدوران الأرض أو تسخير الكهرباء أو الاستماع إلى المذياع من غير ذى صوت منظور ، ثم يزعم أنه يفتى بحكم الدين فيصدقه من يجهل الدين ويكفر بالدين من يحمل عليه جريرة فتواه .

ولا خطر على المسلمين أوبل من هذا الخطر ، فإذا اتقوه وعادوا بالإيمان على علم وبصيرة فلا خطر عليهم من الدول والسياسات ، ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار .

ولا ينسين المسلمون أنهم مجموعة من الأمم فى عصر المجموعات وإن لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين .

ولا ينسين المسلمون أنهم مجموعة من أمم العالم فإن العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذاكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بإزائها .

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، أو هكذا تتمثل لنا المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن مع التقارب بينها فى مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء أرادها أصحابها أو لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم إلا إذا أريدت لغرض مقصود ، وغالباً ما يكون هذا

الغرض وحدة فى الحكم أو فى السياسة أو فى مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة .

والإسلام شاء أو لم يشأ مجموعة بين مجاميع الأمم الكبرى فى القرن العشرين ، وليست مجاميع الأمم مقصورة على الكتلة الشرقية التى يتزعمها الروس أو الكتلة الغربية التى يتزعمها الأمريكيون والإنجليز ، ولكنها أكثر من ذلك وأحق أن تعرف جميعاً أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه .

فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معاً تتخللهما مجموعة واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف المجاميع فى هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين .

إن الكتلة الغربية يقودها إنجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها أناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى . ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء أتباعها من أمم العالم على حدة فى الشئون الروحية ، ومن هنا أيضاً تظهر فى أمريكا الجنوبية وفى أوربة الوسطى وأوربة الغربية برامج فى السياسة لا تنضوى كل الانضواء إلى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال .

ومجموعة الأمم الإسلامية مقصودة ، ولابد أن تقصد ، بخطة واحدة فى بعض الأحوال .

فإذا غفلت عن هذا الأمر الواقع أصابها ما يصيب كل غافل عن الأمر الواقع ، ولكنها لا تتنبه له بداهة لتجتمع على عدوان فى الاستغلال أو على عدوان فى التبشير ، وإنما تتنبه له لتدفع العدوان من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتاً مسموعاً فى كل سياسة تصاب بها على سوء النية أو حسنها . وتربأ بنفسها أن تكون بحيث كانت تيم فى رأى الشاعر :

وَيُقضَى الأَمْرُ حِينَ تَغيبُ تَيمٌ ولاَ يُستَأمَرُونَ وَهُم شُهُودُ

ومتى استطاعت هذه المجموعة العالمية أن تسهم فى أمانة « الإنسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن تؤدى رسالتها للحضارة والسلام وأن تفرض وجودها على من يهملونها ولا يحسبون حسابها فذلك حق الإسلام منها ، وحقها هى من الإسلام .

وإمامها على الدوام « إيمان على هدى وبصيرة » ولا خذلان لمن يقتدى بهذا الإمام .

الفهـــرس




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع